سلسلة السيرة النبوية لكل الأعمار :

الهجرة النبوية
الشريفة

إعداد الدكتور

رجب محمود بخيت

دار العلم والإيمان

للنشر والتوزيع

239

ب . ر

رجب محمود بخيت ،.

السيرة النبوية لكل الأعمار(الهجرة النبوية الشريفة) / رجب محمود بخيت.- ط1.-

دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع.

160 ص ؛ 17.5 × 24.5سم .

تدمك : 978 – 977 – 308 – 589 - 6

1. السيرة النبوية .

أ -العنوان .

رقم الإيداع :1972

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com

elelm_aleman2016@hotmail.com

2018

الفهرس

قائمة الموضوعات

بناء المسجد النبوي
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
الثناء على المهاجرين والأنصار
الثناء علي المهاجرين
الثناء علي الأنصار
الوعيد الشديد فيمن آذى أصحاب الحبيب محمد ق
الوثيقة أو الصحيفة

مواكب الخير وطلائع النور :

ولم تتوقف دعوة الحبيب محمد ص علي القبائل والوفود فقط فقد عرض ق الإسلام على الأفراد والأشخاص، وحصل من بعضهم على ردود صالحة، وآمن به عدة رجال بعد هذا الموسم بقليل كان منهم :

إسلام سويد بن الصامت

كان رسول الله ص لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف إلا تصدّى له ودعاه إلى الله وعرض عليه ما جاء به من الهدى والحق، فقدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجاً أو معتمراً، وكان سويد يسميه قومه فيهم الكامل، لجَلَده، وشِعْره، وشرفه، ونسبه، فتصدى له رسول الله ص حين سمع به، فدعاه إلى الله والإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله ص (وما الذي معك)؟ قال: حكمة لقمان، فقال له رسول الله: اعرضها علي فعرضها عليه فقال: (إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا: قرآن أنزله الله علي، هو هدى ونور)، فتلا عليه رسول الله ص القرآن، ودعاه إلى الإسلام،

فلم يِبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج، وقد كان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قتل وهو مسلم، وكان قتله يوم بِعاث، وكان إسلامه في أوائل سنة 11 من البعثة (1).

إسلام إياس بن معاذ :

كان غلامًا حدثا من سكان يثرب، قدم في وفد من الأوس، جاءوا يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، وذلك قبيل حرب بعاث في أوائل سنة 11 من النبوة؛ إذ كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين القبيلتين ـ وكان الأوس أقل عددًا من الخزرج ـ فلما علم رسول الله ص بمقدمهم جاءهم، فجلس إليهم وقال لهم : (هل لكم في خير مما جئتم له ؟) فقالوا : وما ذاك ؟ قال : (أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزلعليّ الكتاب) ، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن .

---

1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 40/2 ، السيرة النبوية الصحيحة ، 195/1

فقال إياس بن معاذأي قوم، هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع ـ رجل من الوفد حفنة من تراب البطحاء فرمى بها وجه إياس، وقال : دعنا فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ص ، وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا في عقد حلف مع قريش .

وقد روي من حضره من قومه أنه مازال يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه مات مسلماً(2).

أبو ذر الغفاري :

كان أبو ذر ا منكراً لحال الجاهلية، ويأبى عبادة الأصنام وينكر على من يشرك بالله، وكان يصلي لله قبل إسلامه، بثلاث سنوات، دون أن يخص قبلة بعينها بالتوجه، ويظهر أنه كان على نهج الأحناف ، وكان من سكان نواحي يثرب، ولعله لما بلغ إلى يثرب خبر مبعث النبي ص بسويد بن الصامت وإياس بن معاذ، وقع في أذن أبي ذر أيضًا، وصار سببَا لإسلامه .

2) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 41/2

روى البخاري عن ابن عباس قال : قال أبو ذر : كنت رجلًا من غفار، فبلغنا أن رجلًا قد خرج بمكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي : انطلق إلى هذا الرجل وكلمه وائتني بخبره، فانطلق فلقيه، ثم رجع، فقلت : ما عندك ؟ فقال : والله، لقد رأيت رجلًا يأمر بالخير، وينهي عن الشر، فقلت له : لم تشفني من الخبر، فأخذت جرابًا وعصا، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد . قال : فمر بي عليّ . فقال : كأن الرجل غريب ؟ قال : قلت: نعم . فقال : فانطلق إلى المنزل، فانطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أسأله ولا أخبره . فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء . قال : فمر بي عليّ فقال : أما نال للرجل يعرف منزله بعد ؟ قال : قلت : لا . قال : فانطلق معي، قال : فقال : ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟ قال : قلت له : إن كتمت عليّ أخبرتك، قال : فإني أفعل، قال : قلت له : بلغنا أنهقد خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي الله، فأرسلت أخي يكلمه فرجع ولم يشفنيمن الخبر، فأردت أن ألقاه . فقال له : أما إنك قد رشدت . هذا وجهي إليه، ادخل حيث أدخل فإنيإن رأيت أحدًا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلى، وامض أنت . فمضى ومضيت معه حتى دخل، ودخلت معه على النبي ص. فقلت له : اعرض عليّ الإسلام . فعرضه، فأسلمت مكاني ، فقال لي : (يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل) .

فقلت : والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم، فجئت إلى المسجد، وقريش فيه ، فقلت : يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ . فقاموا، فضربت لأموت، فأدركني العباس فأكب عليّ، ثم أقبل عليهم فقال : ويلكم تقتلون رجلًا من غفار ؟ ومتجركم وممركم على غفار، فأقلعوا عنى . فلما أن أصبحت الغد، رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس . فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ، فصنع بي ما صنع بالأمس، فأدركني العباس، فأكب عليّ وقال مثل مقالته بالأمس (3).

طُفَيْل بن عمرو الدَّوْسى :

وكان ممن أسلم بسبب الحرب الإعلامية ضد الحبيب محمد ق و كان رجلًا شريفًا، شاعرَا لبيبَا، رئيس قبيلة دوس، وكانت لقبيلته إمارة أو شبه إمارة في بعض نواحي اليمن، قدم مكة في عام 11 من النبوة، فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها، وبذلوا له أجل تحية وأكرم تقدير، وقالوا له : يا طفيل، إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا،

---

3) صحيح البخاري (فتح الباري) (173/7)، العمري ،السيرة النبوية الصحيحة ، 145/1.

وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئًا .

يقول طفيل : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئـًاولا أكلمه، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفًا ؛ فرقًا من أن يبلغني شيء من قوله، قال : فغدوت إلى المسجد فإذا هو قائم يصلى عند الكعبة، فقمت قريبًا منه، فأبي الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلامًا حسنًا، فقلتفي نفسي : واثكل أمي، والله إني رجل لبيب شاعر؛ ما يخفي عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان حسنـــًا قبلته وإن كان قبيحًا تركته، فمكثت حتى انصرف إلى بيته فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فعرضت عليه قصة مقدمي، وتخويف الناس إياي، وسد الأذن بالكرسف، ثم سماع بعض كلامه، وقلت له : اعرض عليّ أمرك، فعرض عليّ الإسلام، وتلا عليّ القرآن . فوالله ما سمعت قولًا قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت له : إني مطاع في قومي، وراجعإليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لى آية، فدعا .

وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله نوراً في وجهه مثل المصباحفقال : اللهم في غير وجهي . أخشى أن يقولوا : هذه مثله، فتحول النور إلى سوطه فدعا أباه وزوجته إلى الإسلام فأسلما، وأبطأ عليه قومه في الإسلام، لكن لم يزل بهم حتى هاجر بعد الخندق، ومعه سبعو ن أو ثمانون بيتًا من قومه، وقد أبلى في الإسلام بلاء حسنًا، وقتل شهيدًا يوم اليمامة (4) .

ضِمَاد الأزدى :

وفد ضماد الأزدي إلى مكة وتأثر بدعاوي المشركين عن الحبيب محمد ق حتى استقر في نفسه أنه مصاب بالجنون كما يتهمه بذلك زعماء مكة؛ وكان ضماد من أزد شنوءه وكان يعالج من الجنون، فلما سمع سفهاء مكة يقولون إن محمداًق مجنون فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي. قال: فلقيه. فقال: يا محمد إني أرقي من هذاه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك؟

4) ابن كثير ، الســـيرة النبوية ، 76/2 ، العمري ،الســـيرة النبوية الصـــحيحة، 146/1، الرحيق المختوم ،132/1

فقال رسول اللهق :(إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهإلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد).

فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعدهن عليه رسول اللهق ثلاث مرات قال فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغنِ قاموس (لجة) البحر، فقال لرسول اللهق : هات يدك أبايعك على الإسلام قال: فبايعه، فقال رسول اللهق: وعلى قومكقال: وعلى قومي.
وعندما قامت دولة الإسلام في المدينة، وكانت سرايا رسول الله تبعث، فمروا على قوم ضماد فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مطهرة، فقال: ردوها فإن هؤلاء قوم ضماد(5).

5) مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة رقم 868.

بدء إسلام الأنصار:

وفي موسم الحج من سنة 11 من النبوة ـ يوليو سنة 620م ـ وجدت الدعوة الإسلامية بذوراً صالحة، سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات، اتقى المسلمون في ظلالها الوارفة لفحات الظلم والعدوان حتى تغير مجرى الأحداث وتحول خط التاريخ .

ثم مر رسول اللهق بعقبة منى، فسمع أصوات رجال يتكلمون فعمدهم حتى لحقهم، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج، وهم :

كانت البداية المثمرة مع وفد من الخزرج في موسم الحج عند عقبة منى عندما مر رسول اللهق بعقبة منى، فسمع أصوات رجال يتكلمون فعمدهمحتى لحقهم، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج فقال لهم رسول اللهق من أنتم؟

قالوا: نفر من الخزرج

قال: أمن موالي يهود؟

قالوا: نعم

قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟

قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة، إذا كان بينهم شيء، أن نبيَا من الأنبياء مبعوث في هذا الزمان سيخرج فنتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله ص أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهملبعض: يا قوم: تعلموا والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليهمن هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول اللهقراجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا، وكانوا ستة نفر وهم:

أسعد بن زُرَارة [من بني النجار] .

عوف بن الحارث بن رفاعة ابن عَفْراء [من بني النجار] .

رافع بن مالك بن العَجْلان [من بني زُرَيْق] .

قُطْبَة بن عامر بن حديدة [من بني سلمة] .

عُقْبَة بن عامر بن نابي [من بني حَرَام بن كعب] .

جابر بن عبد الله بن رِئاب [من بني عبيد بن غَنْم] .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ص ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا بينهم، فلم تبقى دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر للحبيب محمد ق (6).

فهذا أول موكب من مواكب الخير، لم يكتف بالإيمان وإنما أخذ العهدعلى نفسه أن يدعو إليه قومه، وقد وفي كل منهم لدينه ورسوله، فإنهم حين رجعوا نشطوا في الدعوة إلى الله وعرضوا كلمة الهدى على أهلهم وذويهم فلم تبقى دارمن دور المدينة إلا وفيها ذكر لمحمد ق ، وهكذا عندما يأذن الله تأتي ساعة الحسم الفاصلة فقد كان لقاء هؤلاء مع الرسول على غير موعد، لكنه لقاء هيأه الله ليكون نبع الخير المتجدد الموصول، ونقطة التحول الحاسم في التاريخ ... وساعة الخلاص المحقق من عبادة الأحجار، بل إنها على التحقيق ساعة الحسم في مصير العالم كله ونقل الحياة من الظلمات إلى النور.

6) زاد المعاد ، 50/2 ، سيرة ابن هشام ، 429/1 ، 541 ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، 147/3.

أكان معقولاً في لحظة يسيرةأن يتحول هؤلاء من وثنيين متعصبين إلى أنصار للدعوة متفتحين، وجنود للحق مخلصين ودعاة إلى الله متجردين يذهبون إلى أقوامهم، وبين جوانحهم نوروعلى وجوههم نور،

وإنهم لعلى نور؟ تلك مشيئة القدر العالي هيأت للدعوة مجالها الخصب، وحماها الأمين ... والسنوات العجاف التي قضاها الرسول نضالاً مستمراً، وكفاحاً دائماً، وتطوافاً على القبائل، والتماساً للحليف ... قد ولت إلى غير رجعة ... سيكون بعد اليوم للإسلام قوته الرادعة، وجيشه الباسل وسيلتقي الحق بالباطل ليصفي معه حساب الأيام الخوالي، والعاقبة للمتقين، وستتوالى على مكة منذ اليوم مواكب الخير وطلائع النور التي هيأها الله للخير لتتصل بالهدايه وتسبح في النور، وتغترف من الخير، وترجع إلى يثرب بما وعت من خير، وبما حملتمن نور(7).

7) توفيق محمد سبع، أضواء على الهجرة، ص274،273، الرحيق المختوم ، 1 / 135 ، الصلابي، السيرة النبوية ، 290/1.

الإسراء والمعراج :

بين هذه العواصف العنيفة والأخطار المخيفة التي كانت تحيط بالحبيب محمد ق تمتد يد الرحمن بالرحمة والخير والحنان، وتحتضن العناية الإلهية محمد ق لترتفع به إلى أسمى مكان... ويقع حادث الإسراء والمعراج تكريمًا من الله لنبيه ق ليكون في ذلك عوض أي عوض عما لحقه من أذى المشركين وعنتهم، وما أصابه من آلام ومتاعب في طريقه الشاقة إلى غايته الكريمة ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا [سورة النساء: الآية 70]

بعد وفاة أبو طالب انهار الحاجز، الذي كان للحبيب محمد ق سياجاً واقياً يمنع عنه أذى قريش ونال رسول الله من الضر الجسدي الشيء الكثير.

وكانت خديجة زوجة رسول الله البلسم الشافي لما يصيبه ق من الجراح النفسية التي يلحقها به المشركون، ولما توفيت فقد رسول الله ص هذا البلسم.

وبعد أحداث رحلة الطائف اشتد عليه آذى قريش وأمعنوا في التضييق عليه وتجهمت له قريش وأحدقت به ق فزاد حزنه وهمه حتى سمى ذلك العام بالنسبة للحبيب محمد ق بـ (عام الحزن). وبينما النبي ص يمر بهذه المرحلة، وأخذت الدعوة تشق طريقًا بين النجاح والاضطهاد، وبدأت نجوم الأمل تتلمح في آفاق بعيدة، وقع حادث الإسراء والمعراج .

ففي هذه الرحلة أراد الله عز وجل أن يتيح لرسوله فرصة الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلبه ثقة فيه واستناداً إليه حتى يزداد قوة في مهاجمة سلطان الكفار القائم في الأرض، كما حدث لموسى ؛ فقد شاء الله أن يريه عجائب قدرته.

فلما ملأ قلبه بمشاهدة هذه الآيات الكبرى قال له بعد ذلك:

أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) [سورة طه: الآية 19-23].

فثمرت الإسراء والمعراج أطلع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى، توطئة للهجرة ولأعظم مواجهة على مدى التاريخ للكفر والضلال والفسوق، والآياتالتي رآها رسول اللهق كثيرة: الذهاب إلى بيت المقدس، العروج إلى السماء رؤية الغيب الذي دعا إليه: الأنبياء والمرسلين، الملائكة، السماوات، الجنة والنار نماذج من النعيم والعذاب...واختلف في تعيين زمنه على أقوال شتى :

فقيل : كان الإسراء في السنة التي أكرمه الله فيها بالنبوة، واختاره الطبري .

وقيل : كان بعد المبعث بخمس سنين، رجح ذلك النووي والقرطبي .

وقيل : كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة 10 من النبوة .

وقيل : قبل الهجرة بستة عشر شهراَ، أي في رمضان سنة 12 من النبوة .

وقيل : قبل الهجرة بسنة وشهرين، أي في المحرم سنة 13 من النبوة .

وقيل : قبل الهجرة بسنة، أي في ربيع الأول سنة 13 من النبوة .

وَرُدَّتِ الأقوالُ الثلاثة الأول بأن خديجةلتوفيت في رمضان سنة عشر من النبوة، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس . ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كان ليلة الإسراء . أما الأقوال الثلاثة الباقيةفلم يوجد ما يرجح واحدًا منها، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جدًا (8).

وقد روى أئمة الحديث تفاصيل هذه الوقعة ، فعن أنس بن مالك ا قال: قال رسول اللهق أتيت بالبراق (وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه) قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال: فربطته بالحلقة(9) التي يربط بها الأنبياء.قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل ؛ بإناء من خمر وإناء من لبن فاختر ت اللبن، فقال: جبريل اخترت الفطرة(10)ثم عُرِجَ بنا إلى السّماءِ، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليهِ، ففُتحَ لنا؛ فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخيرِ.

8) الرحيق المختوم ، 136/1

9) الحلقة: المراد باب مسجد بيت المقدس.

10) الفطرة: الإسلام، والاستقامة.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل ؛ ، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن معك ؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد بُعثَ إليه ؟ قال: قد بُعثَ إليهِ، ففتحَ لنا؛ فإذا أنا بابني الخالةِ: عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما، فرحّبا ودعَوا لي بخير.

ثمَّ عُرجَ بي إلى السّماءِ الثالثة، فاستفتحَ جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال : جبريلُ . قيل : ومن معك ؟ قال : محمدق. قيل : وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه. ففتح لنا؛ فإذا أنا بيوسفق ؛ إذا هو قد أُعطِيَ شطرَ الحُسنِ، فرحَّب ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الرّابعةِ، فاستفتح جبريل ؛ قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قال: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففُتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحّب ودعا لي بخير، قال الله عز وجل:(ورفعناه مكاناً علياً).

ثم عُرج بنا إلى السماءِ الخامسة، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ فقال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بهارونق فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل؛ ، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا؛ فإذا أنا بموسى ق فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ق قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا؛ فإذا أنا بإبراهيم ق مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخلُه كلَّ يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى السِّدرةِ المنتهى، وإذا ورقُها كآذان الفِيَلةِ، وإذا ثَـمَرُها كالقِلالِ، قال: فلما غَشِيَها من أمرِ اللهِ ما غَشِي؛ تغيرت، فما أحدٌ من خلقِ اللهِ يستطيعُ أن ينعتها؛ من حُسنها.

فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلتُ إلى موسى ق ، فقال: ما فرضَ ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة قال: ارجع إلى ربِّك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا يُطيقون ذلك؛ فإني قد بلوتُ بني إسرائيل وخَبَرتهم.

قال: فرجعتُ إلى ربِّي، فقلت: يا رب! خفّف على أمتي، فحَطَّ عني خمساً، فرجعتُ إلى موسى، فقلتُ: حطّ عني خمساً. قال: إنَّ أمتك لا يطيقون ذلك؛ فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى ؛ ، حتى قال: يا محمد ! إنَّهن خمسُ صلوات كل يوم وليلة ، لكلِّ صلاة عشر فذلك خمسون صلاة.

ومن همّ بحسنة فلم يعملها؛ كُتبت له حسنة، فإنْ عملها كُتبت له عشراًومن همّ بسيئة فلم يعملها؛ لم تكتب شيئاً، فإن عملها كُتبت سيئة واحدة.

قال: فنزلتُ حتى انتهيت إلى موسق فأخبرتُه، فقال: ارجع إلى ربِّك فاسأله التخفيف. فقال رسول الله ص : فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه) (11).

وعن قتادة بن دعامة عن أنس عن مالك بن صعصعة : أنَّ نبي اللهق حدثهم عن ليلة أُسْرِيَ به ، قال: (بينما أنا في الحطيم(12) - وربما قال في الحجر- مضطجعاً إذ أتاني آت (13)، فقدَّ قال: وسمعته يقول: فشق (14) مابين هذه إلى هذه، فقلت الجارود (15) - وهو إلى جانبي : (ما يعني به؟) قال: (من ثغرة نحره(16) إلى شعرته(17) وسمعته يقول: (من قصه(18) إلى شعرته، فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً، فغسل قلبي، ثم حشي، ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض) فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم، يضع خطوه عند أقصى طرفه(19)، فحملت عليه (فانطلق بي جبريل حتى أتيت السماء الدنيا فاستفتح (20).

قيل: من هذا ؟

---

11) أخرجه مسلم ، 1/99-101، وأبو عوانة ،1/126-128، وأحمد ،3/148

12) الحطيم: هو مابين الركن والمقام.

13) آت: هو جبريل عليه السلام.

14) القائل قتادة .

15) قال الحافظ في "الفتح": لم أر من نسبه من الرواة،ولعله ابن أبي سبرة البصري صاحب أنس .

16) ثغره النحر: الموضع المنخفض في أدنى الرقبة من الأمام.

17) شعرته: شعر عانته وهو ماينبت حول العانة.

18) القص: رأس عظام الصدر.

19) يضع خطوة عند أقصى طرفه: يضع رجله عند منتهى بصره.

20) استفتح: طلب فتح باب السماء الدنيا.

قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به(21)، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه،فسلمت عليه،فرد السلام،ثم قال:مرحباً بالابن الصالح، والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح: قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما فسلمت، فردا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صُعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح: قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

---

21) مرحباً به: أصاب رحباً وسعة.

ثم صُعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح: قيل: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا إدريس، قال : هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صُعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح: قيل: من هذا؟ قال جبريل: قيل: ومن معك؟ قال: محمد ق . قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صُعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح: قيل: من هذا ؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم قال: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء. فلما خلصت، فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح؛ فلما تجاوزت بكى قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً(22) بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

22) أبكى لأن غلاماً: ليس بكاؤه حسدا لله بل أسفا على مافاته من الأجر المترتب على رفع درجته بسبب ما حصل من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزم ذلك لنقص أجره لأن لكل نبي مثل أجر جميع من أتبعه وقوله غلام مراده به أنه صغير السن بالنسبة إليه وقد أنعم الله عليه بما لم ينعم به عليه مع طول عمره

ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل: قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم قال: مرحباً به ونعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلم عليه، قال فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح(23). ثم رفعت لي(24) سدرة المنتهي (25) فإذا نبقها (26)مثل قلال هجر(27)، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما البطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع لي البيت المعمور.

ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن فقال: هي الفطرة(28) التي أنت عليها وأمتك.

23) قد استشكل رؤية الأنبياء في السموات مع أن أجسادهم مستقرة في قبورهم بالأرض وأجيب بأن أرواحهم تشكلت بصور أجسادهم أو أحضرت أجسادهم لملاقاته ﷺ تلك الليلة تشريفا له وتكريما

24) رفعت لي: قربت لي.

25) سدرة المنتهى التي ينتهي إليها ما يعرج من الأرض فيقبض منها

26) النبق: هو ثمر السدر.

27) قلال هجر: يضرب بها المثل لكبرها، وهجر قرية في البحرين والقلة : الجرة الكبيرة.

28) الفطرة: دين الإسلام.

ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى فقال: بما أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة(29)، فارجع إلى ربك فاسأله ا لتخفيف لأمتك، فرجعت، فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال: مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعتإلى موسى فقال: مثله، فرجعت ، فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بما أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك قال: سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم، قال: فلما جاوزت نادى مناد: أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي(30).

29) عالجتهم أشد المعالجة: مارست بني إسرائيل أشد الممارسة.

30) هذا من أقوى ما يستدل به على أنه ﷺ كلمه ربه ليلة الإسراء بغير واسطة.
رواه البخاري 6 / 217 - 219 في بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، وفي الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [سورة طه: الآية 9]، وباب قول الله تعالى : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [سورة مريم: الآية 2] ، وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب المعراج ، ومسلم رقم(164) في الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ ، والترمذي رقم (3343) في التفسير،باب ومن سورة ألم نشرح،والنسائي 1/ 217 و 218 في الصلاة، باب فرض الصلاة .

من مشاهد الإسراء :

رأي الحبيب محمد ق عدة مشاهد في ليلة الإسراء ، فروي البيهقيعن أبي هريرة، قال: جاء جبريل إلى النبي ص ومعه ميكائيل، فقال جبريل لميكائيل: ائتني بطست من ماء زمزم كيما أطهر قلبه، واشرح له صدره، قال: فشق عنه بطنه فغسله ثلاث مرات، واختلف إليه ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم فشرح صدره، ونزع ما إن فيه من غل، وملأه حلما وعلما، وإيمانا ويقينا وسلاما وختم بين كتفيه بخاتم النبوة. ثم أتاه بفرس فحمل عليه، كل خطوة من منتهى بصره، أو أقصى بصره فسار، وسار معه جبريل، فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال: يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنات بسبعمائة ضعف، وما أنفقوامن شيء فهو يخلفه.

ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء قال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين تثاقلت رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

ثم أتى على قوم أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الإبل والغنم، ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وجدارتها، قال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذي لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله شيئا، وما الله بظلام للعبيد.

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدور، ولحم آخر نيئ خبيث فجعلوا يأكلون من النيئ الخبيث ويدعون النضيج الطيب قال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: الرجل من أمتك يقوم عند امرأته حلالا فيأتي المرأة الخبيثة فيبيت معها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيبا، فتأتي الرجل الخبيث فتبيت عنده حتى تصبح.

ثم أتى على خشبة في الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته، ولا شيء إلا خرقته قال: ما هذا يا جبريل، قال: هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه، ثم تلا وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [سورة الأعراف: الآية 86]. ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك يكون عليها أمانات الناس لا يقدر على أدائها، وهو يريد أن يحمل عليها.ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء قال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء الفتنة.

ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم، فيريد الثور أن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة فيندم عليها، فلا يستطيع أن يردها.

ثم أتى على واد فوجد ريحا طيبة باردة، وريح مسك، وسمع صوتا فقال:يا جبريل ما هذه الريح الطيبة الباردة وريح المسك وما هذا الصوت؟ قال: هذا صوت الجنة، تقول: يا رب ائتني بما وعدتني فقد كثرت غرفي واستبرقي وحريري وسندسي وعبقريي ومرجاني وفضتي وذهبي وأكوابي وصحافي وأباريقي وعسلي ومائي وخمري ولبني، فأتني بما وعدتني، فقال: لك كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحا ولم يشرك بي، ولم يتخذ من دوني أنداداومن خشيني فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني جزيته، ومن توكل عليّ كفيته، إني أنا الله لا اله إلا أنا لا أخلف الميعاد، وقد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين، قالت: رضيت.ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا، ووجد ريحا منتنة، فقال: ما هذه الريحيا جبريل؟ وما هذا الصوت؟ قال: هذا صوت جهنم تقول: يا رب ائتني بما وعدتني فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وضريعي وغساقي وعذابي

وقد بعد قعري، واشتد حري، فأتني بما وعدتني قال: لك كل مشرك ومشركة، وخبيث وخبيثة وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب، قالت: رضيت . ثم ذكر بقية الحديث(31). وهذه المشاهد التي رآها الحبيب محمد ق هي تحذير عن مخاطر الأمراض الاجتماعية التي تقع فيها الأمة وتبين عقوبتها حتى لا تسقط الأمة في مستنقع الرذيلة .

تأثير رحلة الإسراء علي قريش

فلما رجع رسول الله ص من رحلته الميمونة أخبر قومه بذلك فقال لهم في مجلس حضره المطعم بن عدي، وعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة، فقال:(إني صليت الليلة العشاء في هذا المسجد، وصليت به الغداة، وأتيت فيما دون ذلك بيت المقدس، فَنُشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم، وموسى وعيسى، وصليت لهم وكلمتهم، فقال عمرو بن هشام كالمستهزئ به: صفهم لي، فقال: أما عيسى، ففوق الربعة، ودون الطول، عريض الصدر، ظاهر الدم، جعد، أشعر تعلوه صهبة(32)،

31) السيوطي ،الإسراء والمعراج ، ص 23، والحديث مذكور في: دلائل النبوة: 143/2، الطبري في تفسيره:6/15، وتفسير ابن كثير: 36/5 .

32) صهبة : بياض بحمرة.

كأنه عروة بن مسعود الثقفي. وأما موسى فضخم آدم، طوال، كأنه من رجال شنوءة متراكب الأسنان، مقلص الشفة، خارج اللثة، عابس، وأما إبراهيم فوالله إنه لأشبه الناس بي، خَلْقاً وخُلقاً(33). فقالوا: يا محمد! فصف لنا بيت المقدس، قال:(دخلت ليلاً وخرجتمنه ليلاً) فأتاه جبريل بصورته في جناحه، فجعل يقول:(باب منه كذا، في موضع كذا، وباب منه كذا، في موضع كذا). ثم سألوه عن عيرهم، فقال لهم:(أتيت على عير بني فلان بالرّوحاء، قد أضلوا ناقة لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم، ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء فشربت منه، فاسألوهم عن ذلك) ، قالوا: هذه والإله آية:(ثم انتهيت إلى عير بني فلان، فنفرت مني الإبل، وبرك منها جمل أحمر، عليه جِوالق(34) مخطط ببياض، لا أدري أكسر البعير، أم لا فاسألوهم عن ذلك) ، قالوا:هذه والإله آية (ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم، يقدمها جمل أورق(35)،

33) الحميدي ، التاريخ الاسلامي ، 37/3 ، الصلابي ، السيرة النبوية ، 273/1
34) الجُوالق: هو العذل الذي يوضع فيه المتاع.
35) أورق: أي لونه أبيض وفيه سواء.

وهاهي تطلع عليكم من الثنية(36)) فقال الوليد بن المغيرة ساحر فانطلقوا فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال، فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال(37).

كانت هذه الحادثة فتنة لكثير الناس فمنهم من إرتد بعد إسلامه ، ومنهم من أمن به وصدقه ، وما كان من صناديد قريش إلا أن أعظموا ذلك الإسراء وصار بعضهم يصفق وبعضهم يضع يده على رأسه تعجبا (38). قال المطعم بن عدي إن أمرك قبل اليوم كان أمرا يسيرا غير قولك اليوم هو يشهد أنك كاذب . نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعدا شهرا ومنحدرا شهرا . أتزعم أنك أتيته في ليلة واحدة واللات والعزى لا أصدقك وما كان هذا الذي تقول قط . فقالأبو بكرا يا مطعم بئس ما قلت لابن أخيك جبهته وكذبته . أنا أشهد أنه صادق . وفي رواية فسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر ا. فقال هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى بنه الليلة إلى بيت المقدس . قال وقد قال ذلك : قالوا نعم .

---

36) الثنية: أي الطريق الجبلي.

37) السيوطي ، الإسراء والمعراج وهو (الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء) ، خرّج أحاديثه أبو عبدالله القاضـي ، دار الحديث ، القاهرة ، جمادى الآخرة ، 1409ه ـــ ص23، الرحيق المختوم ، 139/1 ، السيرة النبوية للصلابي ، 273/1

38) (فلو كان الأسراء رؤيا منامية لما كانت مستغربة وما أحدثت تلك الضجة وكذبه المسلمون اللهم الا من كان منهم قوي العقيدة ثابت الإيمان) .

قال لئن قال ذلك لقد صدق . قالوا أتصدقه أنه ذهب إلى بين المقدس وجاء قبلأن يصبح ؟ قال نعم أني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك . أصدقه في خبر السماءفي غدوة وروحة (فلذلك سُميّ أبو بكر الصديق) . فقال المطعم يا محمد صف لنا بيت المقدس . فقال أبو بكر ا صف لي يا رسول الله فأني قد جئته . فجاءه جبريل بصورته ومثاله فجعل يقول باب منه في موضع كذا وباب منه في موضع كذا وأبو بكر ت يقول أشهد أنك رسول الله حتى أتى على أوصافه . (39)

وقد أكدت رحلة الإسراء والمعراج علي عدد من الحقائق التي يجبأن تتعلم منها الأمة الدرس وتستخلص منها العبرة ، وتستشرف منها مستقبلها ، ومن هذه الحقائق :

أعظم حقائق هذه الرحلة هو قوله تعالى :

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [سورة الإسراء: الآية 1]

وهذه سنة الله في الأنبياء، قال : وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ [سورة الأنعام: الآية 75] وقال لموسى :: لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى [سورة طه: الآية 23] ، وقد بين مقصود هذه الإراءة بقوله : وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ [سورة الأنعام: الآية 75]

39) ابن هشام- السيرة النبوية ، 2/ 45، الحاكم- المستدرك 3/ 62- 63، وصححه ووافقه الذهبي.

فبعد استناد علوم الأنبياء إلى رؤية الآيات يحصل لهم من عين اليقين ما لا يقادر قدره، وليس الخبر كالمعاينة، فيتحملون في سبيل الله ما لا يتحمل غيرهم، وتصير جميع قوات الدنيا عندهم كجناح بعوضة لا يعبأون بها إذا ما تدول عليهم بالمحن والعذاب .

دائما ما تولد المنحة من رحم المحنة وكلما ازداد الليل ظلمة كلما كان إيذانا بفجر جديد ، وكلما ازداد الآم المخاض كان ذلك إيذانا بميلاد جديد ، فبعدما تعرض الحبيب محمد ق لمحنة عظيمة، جاءت المنحة العظيمة، وكانت حادثة الإسراء والمعراج حتى يكرم الحبيب محمد ق .

جاءت رحلة الإسراء والمعراج حتى يطلع الحبيب محمد ق ويتعرفعلي مكانته الحقيقية ، في الملأ الأعلى بين الملائكة والرسل والأنبياء ويجمعه مع إخوانه من الرسل في صعيدٍ واحد، فيكون الإمام والقدوة لهم وهو خاتمهم وآخرهم.

كما أن رحلة الإسراء والمعراج جاءت حتى يلقي الحبيب محمد قمن التكريم ما يستحقه ، فإذا كان أهل الأرض قد أساءوا إليه وأعرضوا عن دعوته ، فإن الملأ الأعلى قد كرمه أيما تكريم يليق بقدر أشرف مخلوقات الله ويلتقي بالمولي عز وجل مباشرة دون رسول ولا حجاب، ويطلعه على عوالم الغيب دون الخلق.

جاءت رحلة الإسراء والمعراج بمثابة الاختبار والتمحيص، ليخلص الصف من الضعاف المترددين، والذين في قلوبهم مرض، ويثبت المؤمنين الأقوياء الخلص ، الذين تقام علي سواعدهم أركان الدولة الناشئة ، حتى تقام الدولة الإسلامية علي دعائم وأسس قوية ليس فيها منافقين ولا مرائيين ولا منتفعين وكانت هذه الحادثة فتنة لكثير الناس فمنهم من إرتد بعد إسلامه ، ومنهم من أمن به وصدقه.

كما أوضحت تلك الرحلة مدي صدق الحبيب محمد ق وإصراره علي إبلاغ قريش بما وقع له في حادثة الإسراء والمعراج بالرغم من أن هذا أمر تنكره عقولهم ولا تدركه في أول الأمر تصوراتهم، فقد روي محمد بن إسحاق عن أم هانئ بنت أبي طالبلواسمها : هند في مسرى رسول الله ص أنها كانت تقول ما أسري برسول الله ص إلا وهو في بيتي ، نائم عندي تلك الليلة في بيتي ، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ص فلما صلى الصبح وصلينا معه قال " يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين " ،

ثم قام ليخرج فأخذت بطرف ردائه فتكشف عن بطنه كأنه قبطية مطوية فقلت له يا نبي الله لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك ، قال " والله لأحدثنهموه " .(40)ولم يمنعه شيء من الجهر به الخوف من مواجهتهم، وتلقي نكيرهم واستهزائهم .

كانت هذه الحادثة فتنة لكثير الناس فمنهم من ثبت مثل أبي بكر الذي ظهر إيمانه القوي في هذا الحدث الجلل، فعندما أخبره الكفار قال بلسان الواثق لئن كان قال ذلك لقد صدق، ثم قال: إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، وبهذا استحق لقب الصديقوهذا منتهى الفقه واليقين، حيث وازن بين هذا الخبر ونزول الوحي من السماء فبين لهم أنه إذا كان غريبا على الإنسان العادي فإنه في غاية الإمكان بالنسبة للنبي ق(41).

---

40) الروض الأنف ، 206/2

41) ابن هشام- السيرة النبوية 2/ 45، الحاكم- المستدرك 3/ 62- 63، وصححه ووافقه الذهبي.

صلاة النبي ص بالأنبياء دليل على أنهم سلموا له بالقيادة والريادة وأن شريعة الإسلام نسخت الشرائع السابقة، وأنه وسع أتباع هؤلاء الأنبياء ما وسع أنبياءَهم أن يسلموا بالقيادة لهذا الرسول ولرسالته التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.
والإسراء بالحبيب محمد من مكة إلى بيت المقدس؛

وحديث سورة الإسراء دليل علي أن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية؛ لما ارتكبوا من الجرائم التي لا مجال بعدها لبقائهم على هذا المنصب،
وإن الله سينقل هذا المنصب فعلا إلى الحبيب محمد ق ويجمع له مركزي الدعوة الإبراهيمية كليهما، فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمة إلى أمة؛ من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات، ولا يزال رسولها يتمتع بوحي القرآن الذي يهدى للتي هي أقوم .
الإسراء بالحبيب محمد ق من المسجد الحرام بمكة - قبلة الإسلام والمسلمين – إلي المسجد الأقصى بفلسطين ،ثم المعراج إلي السماوات العلا يدل علي مدي أهمية المسجد الأقصى بالنسبة للمسلمين، و يشعر المسلمين بمسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى وأن التهديد للمسجد الأقصى، هو تهديد للمسجد الحرام وأهله.

أهمية الصلاة وعظيم منزلتها التي فرضت من فوق سبع سماوات في ليلة عروجه ق.
وفي رحلة الإسراء والمعراج تجلت معالم المجتمع الإسلامي الذي يحكمه الشرع فالمشاهد التي رآها الحبيب محمد ق كانت تدل علي ما سيكون عليه المجتمع الإسلامي وتحذر من المخاطر التي من الممكن أن تقع فيها الأمةمثل كثير من الأمراض الاجتماعية ، كالغيبة والنميمة وأكل الربا وجريمة الزنا.

إن رحلة الإسراء والمعراج وما كان بها من مشاهد ومعجزات وما ناله الحبيب محمدق من تكريم ، كانت بمثابة شعاع النور والأمل الذي أضاء طريق قيام الدولة الإسلامية ، وفيه إشارة إلي أن الحق وأهله سوف ينتصر وأن الباطل زاهق لا محالة ، وأنه علي الأمة أن تبذل التضحيات وأن الحبيب محمد ق سوف تكون له النصرة والتمكين ، ولعل الإشارة إلي ثواب المجاهدين في سبيل الله الذين يزرعون في يوم ويحصدون في يوم لأقوي دليل علي الأمل الكبير الذي حصل عليه الحبيب محمد ق بقرب قيام دولة الإسلام الفتية .

بيعة العقبة الأولى

كان ستة نفر من أهل يثرب أسلموا في موسم الحج سنة 11 من النبوة ووعدوا رسول اللهق بإبلاغ رسالته في قومهم تكن فيها بيعة ، لأنها كانت من نفر صغير لم يروا لأنفسهم الحق في أن يلتزموا بمعاهدة دون الرجوع إلى قبائلهم في المدينة ولكنهم أخلصوا في تبليغ رسالة الإسلام.

بعد عام من المقابلة الأولى التي تمت بين الرسول ق وأهل يثرب عند العقبة وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد التقوا برسول الله ص في العام السابق ـ والسادس الذي لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رِئاب ـ وسبعة سواهم ، فلقوه ق بالعقبة وبايعوه العقبة الأولى، وكانوا عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، مما يشير إلى أن نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى لكنهم تمكنوا بنفس الوقت من اجتذاب رجال الأوس وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام.

روى البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ص قال : (تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم،ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف،

فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا، فهو له كفارة ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله، فأمره إلى الله؛ إن شاء عاقبه، وإن شاءعفا عنه) . قال : فبايعته ـ وفي نسخة : فبايعناه ـ على ذلك .

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث النبي ص مع هؤلاء المبايعين أول سفير في يثرب؛ ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام، ويفقههم في الدين، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك، واختار لهذه السفارة شاباً من شباب الإسلام من السابقين الأولين، وهو مُصْعَب بن عُمَيّر العبدرى ت.

واختيار الحبيب محمد ق لمصعب بن عمير ينم علي علم بشخصية مصعب من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كانت بجانب حفظه لما نزل من القرآن، يملك من اللباقة والهدوء، وحسن الخلق والحكمة، قدراً كبيراً، فضلاً عن قوة إيمانه وشدة حماسه للدين، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة وأن يكسب للإسلام أنصاراً من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم.

وقد نزل مصعب بن عمير ت في يثرب على أسعد بن زرارة ت وأخذا يبثان الإسلام في أهل يثرب بجد وحماس.

ولعل أبرز نجاحات مصعب في الدعوة هو إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ ، وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيَديْ قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما، فلما سمعا بمصعب بن عمير ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام قال سعد لأسيد: لا أبالك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارينا، فإنه لولاأسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً فأخذ أسيد حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال: هذا سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: أن يجلس أكلمه، فوقف عليهما متشتماً فقال: ما جاء بكما تسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره؟

قال أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهّر وتطهِّر ثوبيك،

ثم تشهد شهادة الحق؟ ثم تصلِّي، فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجهالذي ذهب به من عندكم !!

فما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك.

فقام سعد مغضباً مبادراً مخوفاً للذي ذكر له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما سعد فوجدهما مطمئنين، فعرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة مارُمْتَ هذا مني أتغشانا في دارنا بما نكره وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء والله - سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟

فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالا: فعرفنا - والله - في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله.

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قالا تغتسل، فتطهَّر وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه، ثم تشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، إلا رجل واحد ـ وهو الأُصَيْرِم ـ تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل، ولم يسجد لله سجدة فقال النبي ص : (عمل قليلًا وأجر كثيراً) .

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام،

حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخَطْمَة ووائل . كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر ـ وكانوا يطيعونه ـ فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة .

وقبل حلول موسم الحج التالي ـ أي حج السنة الثالثة عشرة ـ عاد مصعب بن عمير إلى مكة يحمل إلى رسول الله ص بشائر الفوز، ويقص عليه خبر قبائل يثرب، وما فيها من مواهب الخير، وما لها من قوة ومنعة (42).

بيعة العقبة الثانية

بعد أن فشا الإسلام في يثرب وبدأ يتغلغل في ربوعها ، شعر المسلمون بها بواجبهم نحو دينهم الجديد وبدأت نفوسهم تهفوا للقاء الحبيب محمد ق والدفاع عنه بأرواحهم وتطلعت نفوسهم لملاقاة إخوانهم في العقيدة ، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم ـ وهم لم يزالوا في يثرب أو كانوا في الطريق :

---

42) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1/435-437 ، ابن القيم ، زاد المعاد ، 2/51 ، الرحيق المختوم ، ص145 ، السيرة النبوية، 1/293

حتى متى نترك رسول الله ص يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟ قال جابر بنعبد الله: ت "..... حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعا فقلنا حتى متى نترك رسول الله ص يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟ فرحل إليه منا سبعون رجلا حتى قدموا عليهفي الموسم فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا(43).

وفي موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة حضر منهم بضع وسبعون نفسًا ضمن حجاج قومهم من المشركين.

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ص اتصالات سرية أدتإلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعبالذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم الاجتماع في سريةتامة في ظلام الليل .

قال كعب بن مالك الأنصاري - وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية-: «خرجنا في حجاج قومنا من المشركين وقد صلينا وفقهنا.. ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ص العقبة من أوسط أيام التشريق...

43) أخرجه الامام أحمد في مسنده ج 3 / 339 - 440 والبيهقي في الدلائل ج 2 / 442، 443.

وكنا نكتم من معنامن المشركين أمرنا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا، نُسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ص حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب: فبين أن الرسول في منعة من قومه بني هاشم، ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة؛ ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له وإلا فليدعوه فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله، فيأخذ لنفسه ولربه ما يحب من الشروط.

قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرَاعن كابر، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلا: يا رسول الله، إن بينناوبين القوم حبالاً، وإنا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيتم إن نحن فعلنا ذلكثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعنا؟ فتبسم رسول الله ص ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم».

ثم قال: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباَ ليكونوا على قومهم بما فيهم».

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباَ تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.وهاك أسماءهم :

نقباء الخزرج

أسعد بن زُرَارَة بن عدس .

سعد بن الرّبِيع بن عمرو .

عبد الله بن رواحة بن ثعلبة .

ـ رافع بن مالك بن العَجْلان .

البراء بن مَعْرَور بن صَخْر .

عبد الله بن عمرو بن حَرَام .

عبادة بن الصامت بن قيس .

سعد بن عبادة بن دُلَيّم .

المنذر بن عمرو بن خُنَيّس .

نقباء الأوس

أُسَيْد بن حُضَيْر بن سِمَاك .

سعد بن خَيْثَمَة بن الحارث .

رفاعة بن عبد المنذر بن زبير .

ولما تم اختيار هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبي ص ميثاقًا آخر بصفتهم رؤساء مسئولين
.

قال لهم : (أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي) ـ يعنى المسلمين ـ قالوا : نعم .

بنود البيعة

وقد روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلًا . قال جابر : قلنا : يا رسول الله علام نبايعك ؟ قال :

على السمع والطاعة في النشاط والكسل .

وعلى النفقة في العسر واليسر .

وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وعلى أن تقوموا في الله، لا تأخذكم في الله لومه لائم .

وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة)(44) .

---

44) رواه البيهقي في سننه الكبرى 8/ 146 حديث رقم: 16333

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة، وأجمعوا على الشروع في عقدها قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا في مواسم سنتي 11 و 12 من النبوة، قام أحدهما تلو الآخر؛ ليؤكدا للقوم خطورة المسئولية، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية، ويتأكدا من ذلك .

قال ابن إسحاق : لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عبادة بن نــَضْلَة :هل تدورن علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنكم إذا نَهَكَتْ أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكَة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة .قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : الجنة . قالوا : ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه (45).

وفي رواية جابر [قال] : فقمنا نبايعه،فأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وهو أصغر السبعين ـ فقال : رويدا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا

45) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 100/2

ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله (46).

وبعد إقرار بنود البيعة، وبعد هذا التأكيد والتأكد بدأ عقد البيعة بالمصافحة قال جابر ـ بعد أن حكي قول أسعد بن زرارة ـ قال : فقالوا : يا أسعد، أمطْ عنا يدك . فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها .

وحينئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية في هذا السبيل وتأكد منه ـ وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير ـ فكان هو السابق إلى هذه البيعة . قال ابن إسحاق : فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده . وبعد ذلك بدأت البيعة العامة، قال جابر : فقمنا إليه رجلًا رجلًا فأخذ علينا البيعة، يعطينا بذلك الجنة .

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولًا . ما صافح رسول الله ص امرأة أجنبية قط (47).

---

46) رواه البيهقي في سننه الكبرى ، 9/ 9 حديث رقم: 17513
47) الرحيق المختوم ، ص 118

قال: ثم قال القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان جديدان قال: فقلت له كلمة، كأني أريد أن أشرك القوم فيما قالوا بها:يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من سادتنا مثل نعلي هذا الفتىمن قريش؟ قال: فسمعهما الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بها إلي وقال: والله لتنتعِلنَّهما، قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت والله الفتى فاردد إليه نعليه، قال: قلت: لا، والله لا أردهما فأل والله صالح، لئن صدق الفأل لأسلُبنَّه (48).

ولما تم إبرام المعاهدة، وكان القوم على وشك الانفضاض، اكتشفها أحد الشياطين؛ وحيث إن هذا الاكتشاف جاء في اللحظة الأخيرة، ولم يكن يمكن إبلاغ زعماء قريش هذا الخبر سرَا، ليباغتوا المجتمعين وهم في الشعب، قام ذلك الشيطان على مرتفع من الأرض،وصاح بأنفذ صوت سمع قط : يا أهل الجَبَاجب ـ المنازل ـ هل لكم في مُذَمّم والصباة معه ؟ قد اجتمعوا على حربكم .

فقال رسول الله ص : (هذا أزَبّ العقبة، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك. ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم) .

ولما سمع الأنصار صراخ الشيطان منذرًا قريشًا، قال العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غدًا بأسيافنا.

---

48) رواه الطبراني في معجمه الكبير 91/19 حديث رقم: 174، و ابن حنبل في مسـنده 3/ 462 حديث رقم: 15836، و الحاكم في مستدركه 499/3 حديث رقم: 5863

فقال رسول الله ص: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» فرجعوا إلى رحالهم.

لما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضجة، وساورتهم القلاقل والأحزان؛ لأنهم كانوا على معرفة تامة بعواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إلى أنفسهم وأموالهم، فما أن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى أهل يثرب؛ ليقدم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة، قال الوفد :

(يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم) .

ولما كان مشركوا الخزرج لا يعرفون شيئًا عن هذه البيعة؛ لأنها تمت في سرية تامة في ظلام الليل، انبعث هؤلاء المشركون يحلفون بالله : ما كان من شيء وما علمناه، حتى أتوا عبد الله بن أبي بن سلول، فجعل يقول : هذا باطل، وما كان هذا،وما كان قومي ليفتاتوا على بمثل هذا، ولو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤمروني .

أما المسلمون فنظر بعضهم إلى بعض، ثم لاذوا بالصمت، فلم يتحدث أحد منهم بنفي أو إثبات .

ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين، فرجعوا خائبين .

عاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر، لكنهم لم يزالوا يَتَنَطَّسُونه ـ يكثرون البحث عنه ويدققون النظر فيه ـ حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح، والبيعة قد تمت فعلًا . وذلك بعد ما نفر الحجيج إلى أوطانهم، فسارع فرسانهم بمطاردة اليثربيين، ولكن بعد فوات الأوان، إلا أنهم تمكنوا من رؤية سعد بن عبادة والمنذر ابن عمرو فطاردوهما، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فألقوا القبض عليه، فربطوا يديه إلى عنقه بِنِسْع رَحْلِه، وجعلوا يضربونه ويجرونه ويجرون شعره حتى أدخلوه مكة، فجاء المطعم بن عدى والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم؛ إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه، فإذا هو قد طلع عليهم، فوصل القوم جميعًا إلى المدينة (49).

لقد تمت بيعة العقبة الثانية في جو تعلوه عواطف الحب والولاء، والتناصر بين أشتات المؤمنين، والثقة والشجاعة والاستبسال في هذا السبيل . فمؤمنمن أهل يثرب يحنو على أخيه المستضعف في مكة، ويتعصب له،ويغضب من ظالمه وتجيش في حناياه مشاعر الود لهذا الأخ الذي أحبه بالغيب في ذات الله.

---

49) محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري ، الطبقات الكبرى، دار صادر – بيروت، 224/1 ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، 448/1-450 ، ابن القيم ، زاد المعاد ، 51/2

ولم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول على مر الأيام، بل كان مصدرها هو الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه، إيمان لا يزول أمام أي قوة من قوات الظلم والعدوان، إيمان إذا هبت ريحه جاءت بالعجائب في العقيدة والعمل، وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يسجلوا على أوراق الدهر أعمالًا ويتركوا عليها آثارًا خلا عن نظائرها الغابر والحاضر، وسوف يخلو المستقبل(50) .

عندما نراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية من الأنصار في كتب السير والتراجم نجد أن هؤلاء الثلاثة والسبعين قد استشهد قرابة ثلثهم على عهدالنبي ص وبعده، ونلاحظ أنه قد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ص قرابة النصف، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرسول ق في جميع غزواته، وأما الذين حضروا غزوة بدر فكانوا قرابة السبعين. لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله ورسوله ق ، فمنهم من قضى نحبه ولقي ربه شهيد، ومنهم من بقي حتى ساهم في قيادة الدولة المسلمة وشارك في أحداثها الجسام بعد وفاة رسول الله ص ، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النماذج التي تعطي ولا تأخذ، والتي تقدم كل شيء، ولا تطلب شيئاً إلا الجنة، ويتصاغر التاريخ في جميع عصوره ودهوره أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرجال(51).

---

50) الرحيق المختوم ، 153/1

51)التربية القيادية ،ص 1304

الهجرة إلي المدينة :

بعد أن تمت بيعة العقبة الثانية ونجح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة ـ وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته ـ أذن رسول الله ص للمسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن .

لم تكن الهجرة نزهة أو رحلة يروح فيها الإنسان عن نفسه، ولكنها مغادرة الأرض والأهل، ووشائج القربى، وصلات الصداقة والمودة، وأسباب الرزق، والتخلي عن كل ذلك من أجل العقيدة، ولقد أصاب المؤمنين من المشركين الأذى والاضطهاد حتى وصلوا إلى قناعة كاملة بعدم إمكانية المعايشة مع الكفر ، ولم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح، والتضحية بالأموال، والنجاة بالشخص فحسب مع الإشعار بأنه مستباح منهوب قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان .

ولم تكن الهجرة أمراً فجائياً بل سبقته أحداث مهدت لها ، فقد تناول القرآن المكي التنويه بالهجرة، ولفت النظر إلى أن أرض الله واسعة، قالتعالى:

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ [سورة الزُّمَر: الآية 10].

ثم تلا ذلك نزول سورة الكهف، وتحدثت عن الفتية الذين آمنوا بربهموعن هجرتهم من بلدهم إلى الكهف، وهكذا استقرت صورة من صور الإيمانفي نفوس الصحابة وهي ترك أهلها ووطنها من أجل عقيدتها.

ثم تلا ذلك آيات صريحة تتحدث عن الهجرة في سورة النحل، قال تعالى:

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) [سورة النحل: الآية 41،42].

وفي أواخر السورة يؤكد المعنى مرة أخرى بقوله تعالى:

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ [سورة النحل: الآية 110]

ولقد كانت الهجرة إلى الحبشة وما صاحبها من أحداث تدريباً عملياً على ترك الأهل والوطن ، والإلتجاء إلي فئة تنصر الله ورسوله .

كما أن الحبيب محمد ق لم يسارع بالانتقال إلى الأنصار من الأيام الأولى، وإنما أخر ذلك لأكثر من عامين، حتى تأكد من وجود القاعدة الواسعة نسبيّا، كما كان في الوقت نفسه يتم إعدادها في أجواء القرآن الكريم، وخاصة بعد انتقال مصعب إلى المدينة.

وقد تأكد أن الاستعداد لدى الأنصار قد بلغ كماله، وذلك بطلبهم هجرة الرسول الكريم إليهم، كما كانت المناقشات التي جرت في بيعة العقبة الثانية، تؤكد الحرص الشديد من الأنصار على تأكيد البيعة، والاستيثاق للنبي ق بأقوى المواثيق على أنفسهم، وكان في رغبتهم أن يميلوا على أهل منى، ممن آذى رسول الله ص بأسيافهم لو أذن الرسول الكريم بذلك، ولكنه قال لهم: «لم أؤمر بذلك».

كل هذه الأحداث كانت تمهيداً في وجدان المسلمين واستعداداً نفسياً لحركة هجرة كبيرة إلي المدينة المنورة . (52).

طلائع الهجرة :

بعد أن علمت قريش بأنباء بيعة العقبة الثانية ، وفشلت محاولاتهم في إدراك الأنصار ثارت ثائرة المشركين، وتيقنوا أنه أصبح للإسلام أرض جديدة وأنصار جدد ، فازدادوا إيذاء للمسلمين، فأذن النبي ص للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، وكان التوجه إلى المدينة من الله تعالى، عن عائشة ل قالت: «لما صدر السبعون من عند رسول الله ص

52) صالح الشامي، السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، ص118-121

طابت نفسه، وقد جعل الله له منعة، وقوماً أهل حرب وعدة، ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج، فيضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحاب رسول الله ص واستأذنوه في الهجرة فقال: «قد أريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي»، ثم مكث أياماً ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد الخروج فيخرج إليها، فجعل القوم يتجهون ويتوافقون ويتواسونويخرجون ويخفون ذلك، فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ص أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة، فهي أول ظعينة قدمت المدينة، ثم قدم أصحاب رسول الله ص أرسالاً، فنزلوا على الأنصار، في دورهم فآووهم ونصروهم وآسوهم، وكان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين بقباء، قبل أن يقدم النبي ص فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة، كَلِبَت(غضبت) قريش عليهم، وحربوا واغتاظواعلى من خرج من فتيانهم،

وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله ص في البيعة الآخرة، ثم رجعوا إلى المدينة، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى رسول الله ص بمكة، حتى قدموا مع أصحابه في الهجرة، فهم مهاجرون أنصاريون، وهم:ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب بن كلدة والعباس بن عبادة بن نضلة، وزياد بن لبيد، وخرج المسلمون جميعاً إلى المدينة فلم يبقَ بمكة فيهم إلا رسول الله ص وأبو بكر، وعلي، أو مفتون أو مريض أو ضعيف عن الخروج(53).

وبدأ المسلمون يهاجرون وهم يعرفون كل ذلك، وأخذ المشركون يحولون بينهم وبين خروجهم؛ لما كانوا يحسون به من الخطر، وهاك نماذج من ذلك :

كان من أول المهاجرين أبو سلمة : هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما قاله ابن إسحاق ـ وزوجته وابنه، قالت أم سلمة ل :(لما أجمع أبي سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها إلى البلاد؟ قالت: فتركوا خطام البعير من يده فأخذوني منه.

53) ابن سعد، الطبقات الكبري226/1

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة.

قالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففُرق بيني وبين زوجي وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمي - أحد بني المغيرة - فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت.

قالت: وردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة وما معي أحد من خلق الله.

قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار.

فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟

قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أو ما معك أحد؟

قالت: فقلت: لا والله إلا الله وبنيّ هذا.

قال: والله مالك من مترك.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم أستأخر عني حتى إذا نزلت عنه أستأخر ببعيري فحط عنه، ثم قيّده في الشجرة، ثم تنحىإلى الشجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله ثم استأخر عني فقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاد بي حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية، وكان أبو سلمة بها نازلاً، فادخليها على بركة الله. ثم انصرف راجعاً إلى مكة.قال فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصابآل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة (54).

---

54) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 470-68/4/1

هكذا أثر الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب، فهذه أسرة فرق شملها، وامرأة تبكي شدة مصابها، وطفل خلعت يده وحُرِم من أبويه، وزوج وأب يسجل أروع صور التضحية والتجرد، ليكون أول مهاجر يصل أرض الهجرة، محتسبين في سبيل الله ما يلقون، مصممين على المضي في طريق الإيمان والانحياز إلى كتيبة الهدى فماذا عسى أن ينال الكفر وصناديده من أمثال هؤلاء؟

وأما صنيع عثمان بن طلحة ت ، فقد كان يومئذ كافراً (وأسلم قبل الفتح)، ومع ذلك تشهد له أم سلمة ل بكرم الصحبة، وذلك شاهد صدق على نفاسة هذا المعدن، وكمال مروءته، وحمايته للضعيف، (فقد أبت عليه مروءته وخلقه العربي الأصيل أن يَدَع امرأة شريفة تسير وحدها في هذه الصحراء الموحشة وإن كانت على غير دينه، وهو يعلم أنها بهجرتها تراغمه وأمثاله من كفار قريش!(55)

هجرة صهيب الرومي : كان صهيب بن سنان النَّمري من النِّمر بن قاسط أغارت عليهم الروم، فسُبي وهو صغير، ثم تقلَّب في الرَق، حتى ابتاعه عبد الله بن جدعان ثم اعتقه، ودخل الإسلام هو وعمار بن ياسر ب في يوم واحد.

55) د. محمد أبو شهبة ،السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة، 461/1

وكانت هجرة صهيب تعملاً تتجلى فيه روعة الإيمان، وعظمة التجرد لله، حيث ضحّى بكل ما يملك في سبيل الله ورسوله واللحوق بكتيبة التوحيد والإيمان، فعن أبي عثمان النهدي/ قال: (بلغني أن صهيباً حين أراد الهجرة إلى المدينة قال له أهل مكة: أتيتنا هاهنا صُعْلُوكاً(فقيراً)، حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت ما بلغتَ، ثم تنطلق بنفسك ومالك؟ والله لا يكون ذلك. فقال: أرأيتم إن تركت مالي تخلون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم فجعل لهم ماله أجمع فبلغ ذلك الحبيب محمدق فقال: (ربح صهيب، ربح صهيب)(56).

وقال عكرمة: ونزلت على النبي ص

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ [سورة البقرة: الآية 207] فلما رآه النبي ص قال:(أبا يحيى، ربح البيع) قال: وتلا عليه الآية(57).

إن صهيب ما فعل ذلك، وما انحاز إلى الفئة المؤمنة إلا ابتغاء مرضاة الله بالغاً ما بلغ الثمن، ليضرب لشباب الإسلام مثلاً في التضحية عزيزة المنال، عساهم يسيرون على الدرب، ويقتفون الأثر.

---

56) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 477/1

57) أخرجه الحاكم (398/3) صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وسكت عليه الذهبي.

هجرة عمر بن الخطاب ت : قال عمر بن الخطاب ت: «اتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، التناضب(58) من أضاة(59) بني غفار، فوق سرف(60)، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حبس، فليمض صاحباه. قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنا هشام، وفتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزل في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاها لأمهما، حتى قدما علينا المدينة ورسول الله ص بمكة فكلماه، وقالا: إن أمكقد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك فرق لها فقلت له: عيأّش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لا متشطت، ولو قد اشتد عليها حرمكة لاستظلت.

58) التناضب: جمع تنضيب وهو شجر.
59) الأضاة: على عشرة أميال من مكة.
60) سرف: واد متوسط الطول من أودية مكة

قال: أبر قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه.

قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما، قال: فأبى علي إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك، قال: قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول(61) فألزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني(62) على ناقتك هذه؟ قال: بلى، قال: فأناخ، وأناخ، ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم فلما قدم رسول الله ص المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم:

۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) [سورة الزُّمَر: الآية 53-55].

61) الذلول: أذلها العمل، فصارت سهلة الركوب والانقياد.
62) تعقبني: تجعلني أعقبك عليها لركوبها.

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص، قال: فقال هشام: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى(63) أُصَعِّد بها فيه وأُصَوِّبُ ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم فهمنيها، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا، قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه، فلحقت برسول الله ص وهو بالمدينة(64).

هجرة عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص :وكانا لما أرادا الهجرة إلي المدينة قامت قريش بحبسهما في بيت لا سقف له، وذلك زيادةفي التعذيب، إذ يضاف إلى وحشة الحبس حرارة الشمس وسط بيئة جبلية شديدة الحرارة مثل مكة.

ثم إن رسول الله ص قال من لي بعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص أي المحبوسين عند قريش المانعين لهما من الهجرة فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة - وكان من المحبوسين هو أيضا في مكة ولكنه نجح في الهجرة - أنا لك يا رسول الله بهما فخرج إلى مكة فقدمها مستخفيا فلقي امرأة تحمل طعاما فقال لها أين تريدين يا أمة الله قالت أريد هذين المحبوسين تعنيهما فتبعها

63) ذو طوى، واد من أودية مكة.

64) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 475/1

حتى عرف موضعهما وكان بيتا لا سقف له فلما أمسى تسور عليهما ثم اخذ مروة - حجرا - فوضعها تحت قيدهما ، ثم ضربهما بسيفه ، ثم جعلهما على بعيره وساق بهما فعثر فدميت أصبعه فأنشد :

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

ثم قدم بهما على رسول الله ص في المدينة .

وكان ق في كل ليلة إذا صلى العشاء الآخرة قنت في الركعة الأخيرة يقول اللهم انج هشام بن العاص اللهم انج سلمة بن هشام اللم انج عياش بن ابي ربيعة اللهم انج هشام بن العاص اللهم انج المستضعفين من المؤمنين اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلهم عليهم سنين مثل سني يوسف .(65) هذه أربعة نماذج لما كان المشركون يفعلونه بمن يريد الهجرة إذا علموا ذلك . ولكن على رغم ذلك خرج الناس أرسالًا يتبع بعضهم بعضًا .

65) علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية ، 2 /294 ، وأنظر أيضا : البخاري، باب الاستسقاء، ، 33/2 ، رقم 1006.

وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ص وأبو بكر وعلى ـ أقاما بأمره لهما ـ وإلا من احتبسه المشركون كرهًا، وقد أعد رسول الله ص جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج، وأعد أبو بكر جهازه(66) .

روى البخاري عن عائشة قالت : قال رسول الله ص للمسلمين :(أني أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابَتَيْن) ـ وهما الحرتان ـ فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ص : (على رِسْلِك، فأني أرجو أن يؤذن لي) . فقال له أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال : (نعم) ، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ص ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السّمَر ـ وهو الخَبَطُ ـ أربعة أشهر .

في دار الندوة :

بعد أن منيت قريش بالفشل في منع الصحابة ي من الهجرة إلى المدينة، على الرغم من أساليبهم الشنيعة والقبيحة، فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا على مصالحهم الاقتصادية، وكيانهم الاجتماعي القائم بين قبائل العرب.فقد كانوا يعلمون ما في شخصية الحبيب محمد ق من غاية قوة التأثير مع كمال القيادة والإرشاد، وما في أصحابه من العزيمة والاستقامة والفداءفي سبيله،

66) الرحيق المختوم ، ص 124

ثم ما في قبائل الأوس والخزرج من القوة والمنعة، وما في عقلاء هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلاح، والتداعي إلى نبذ الأحقاد، ولاسيمابعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية طيلة أعوام من الدهر .

كما كانوا يعرفون ما للمدينة من الموقع الاستراتيجي بالنسبة إلى المحجة التجارية التي تمر بساحل البحر الأحمر من اليمن إلى الشام . وقد كان أهل مكة يتاجرون إلى الشام بقدر ربع مليون دينار ذهب سنوياً، سوى ما كان لأهل الطائف وغيرها . ومعلوم أن مدار هذه التجارة كان على استقرار الأمن في تلك الطريق .

فلا يخفي ما كان لقريش من الخطر البالغ في تمركز الدعوة الإسلامية في يثرب، ومجابهة أهلها ضدهم .

شعر المشركون بتفاقم الخطر الذي كان يهدد كيانهم، فصاروا يبحثون عن أنجح الوسائل لدفع هذا الخطر الذي مبعثه الوحيد هو حامل لواء دعوة الإسلام محمد ق .

ولما أدركت قريش لأخطار المحدقة بها اجتمعت قيادتها في دار الندوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدعوة .

وكانت الوجوه البارزة في هذا الاجتماع الخطير من نواب قبائل قريش :

أبو جهل بن هشام، عن قبيلة بني مخزوم .

جبير بن مُطْعِم، وطُعَيْمَة بن عدى، والحارث بن عامر، عن بني نَوْفَلبن عبد مناف .

شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب، عن بني عبد شمس بن عبد مناف .

النَّضْر بن الحارث، عن بني عبد الدار .

أبو البَخْتَرِى بن هشام، وزَمْعَة بن الأسود، وحَكِيم بن حِزَام، عن بني أسد بن عبد العزى .

نُبَيْه ومُنَبِّه ابنا الحجاج، عن بني سهم .

أمية بن خَلَف، عن بني جُمَح .

ولما جاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد، اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل ووقف على الباب، فقالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأيًا ونصحًا . قالواأجل، فادخل، فدخل معهم .

وبعد أن تكامل الاجتماع بدأ عرض الاقتراحات والحلول، ودار النقاش طويلًا . قال أبو الأسود : نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا، ولا نباليأين ذهب، ولا حيث وقع، فقد أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .قال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ؟

والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب، ثم يسير بهم إليكم ـ بعد أن يتابعوه ـ حتى يطأكم بهم في بلادكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأياً غير هذا قال أبو البخترى : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوابه ما أصاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله ـ زهيراً والنابغة ـ ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم .

قال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه ـ كما تقولون ـ ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره .

وبعد أن رفض البرلمان هذين الاقتراحين، قدم إليه اقتراح آثم وافق عليه جميع أعضائه، تقدم به كبير مجرمي مكة أبو جهل بن هشام . قال أبو جهل : والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جلداً نَسِيبا وَسِيطًا فينا،

ثم نعطى كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعَقْل، فعقلناه لهم .

قال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره .

ووافق برلمان مكة على هذا الاقتراح الآثم بالإجماع، ورجع النواب إلى بيوتهم وقد صمموا على تنفيذ هذا القرار فوراً (67).

من طبيعة مثل هذا الاجتماع السرية للغاية، وألا يبدو على السطح الظاهر أي حركة تخالف اليوميات، وتغاير العادات المستمرة، حتى لا يشم أحد رائحة التآمر والخطر، ولا يدور في خلد أحد أن هناك غموضًا ينبئ عن الشر، وكانهذا مكراَ من قريش، ولكنهم ماكروا بذلك الله ـ فخيبهم من حيث لا يشعرون . فقد نزل جبريل عليه السلام إلى النبي ص بوحي من ربه تبارك وتعالى فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج، وحدد له وقت الهجرة، وبين له خطة الردعلى قريش

67) الرحيق المختوم ، ص 126

فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه .يقول تعالى وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [سورة الأنفال: الآية 30]

فقال: فتشاورت قريش بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق، يريدون النبي ص، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: أن أخرجوه، فاطلع الله نبيه على ذلك (68)

إنه التذكير بما كان في مكة، قبل تغير الحال، وتبدل الموقف، وإنه ليوحي بالثقة واليقين في المستقبل، كما ينبه إلى تدبير قدر الله وحكمته، فيما يقضي به ويأمر: ولقد كان المسلمون الذين يخاطبون بهذا القرآن أول مرة، يعرفون الحالين معرفة الذي عاش ورأى وذاق، وكان يكفي أن يذكروا بهذا الماضي القريبوما كان فيه من خوف وقلق، في مواجهة الحاضر الواقع وما فيه من أمن وطمأنينة، وما كان من تدبير المشركين ومكرهم برسول الله ق، في مواجهة ما صار إليه من غلبة عليهم، لا مجرد النجاة منهم.

68) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 181/3 ، ابن حجر في الفتح وحسن إسناده، فتح الباري ، 236/7.

لقد كانوا يمكرون ليوثقوا رسول الله ص ويحبسوه حتى يموت، أو ليقتلوه ويتخلصوا منه، أو ليخرجوه من مكة منفيّا مطروداً، ولقد ائتمروا بهذا كله ثم اختاروا قتله، على أن يتولى ذلك المنكر فتية من القبائل جميعاً، ليتفرق دمه في القبائل، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب كلها، فيرضوابالدية وينتهي الأمر وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [سورة الأنفال: الآية 30]. إنها صورة ساخرة وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة، فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل من تلك القدرة القادرة، قدرة الله الجبار، القاهر فوق عباده الغالب على أمره، وهو بكل شيء محيط(69).

بعد أن أعلم المولي عز وجل حبيبه محمدق بمراد قريش وأذنله في الهجرة ، وحدد له وقت الهجرة اخذ الحبيب محمدق يعد العدة للهجرة أخذا بالأسباب (70) .

عن عائشة أم المؤمنين قالت: كان لا يخطئ رسول الله ص أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة،

---

69) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1501/3

70) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 482/1

وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ص في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول اللهق بالهاجرة(71)، في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلما رآه أبو بكر، قالما جاء رسول الله ص هذه الساعة إلا لأمر حدث.

قالت: فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ص وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ق: «أخرجعني من عندك» فقال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي، وما ذاك، فداك أبي وأمي! فقال: «إنه قد أذن لي في الخروج والهجرة» قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: «الصحبة» قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أحدًا يبكيمن الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أريقط رجلاً من بني الديل بن بكر وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو، وكان مشركًا يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاها لميعادهما(72).

71) الهاجرة: نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر أو إلى العصر.
72) ابن كثير، السيرة النبوية ، 233/2، 234

وبعد أن دبر الحبيب محمد ق أمر الهجرة مع صاحبه أبي بكر رجع إلى بيته ينتظر مجيء الليل . وقد استمر في أعماله اليومية حسب المعتاد حتى لم يشعر أحد بأنه يستعد للهجرة، أو لأي أمر آخر اتقاء مما قررته قريش .

لم يعلم بخروج رسول الله ص أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر.

أما علي فإن رسول الله ص أمره أن يتخلف، حتى يؤدي عن رسول الله ص الودائع، التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ص وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته ، وأمره تلك الليلة أن يضطجع على فراشه، ويتسجى ببرده الحضرمي الأخضر، وأخبره أنه لا يصيبه مكروه (73).

وقد اتعد الحبيب محمد ق مع أبي بكر على أن يلقاهماعبد الله بن أريقط في غار ثور بعد ثلاث ليال(74).

أما أكابر مجرمي قريش فقضوا نهارهم في الإعداد سرا لتنفيذ الخطة المرسومة التى أبرمها صناديد قريش صباحًا.

---

73) ابن كثير ، السيرة النبوية ، 233/2، 234

74) الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة ، 722/5.

واختير لذ لك أحد عشر رئيسًا من هؤلاء الأكابر، وهم :

أبو جهل بن هشام .

الحَكَم بن أبي العاص .

عُقْبَة بن أبي مُعَيْط .

النـــــّضْر بن الحارث .

أُمية بن خَلَف .

زَمْعَة بن الأسود .

طُعَيْمة بن عَدِىّ .

أبو لهب .

أبي بن خلف .

نُبَيْه بن الحجاج .

أخوه مُنَبَه بن الحجاج .

فلما كانت عتمة من الليل وساد الهدوء، ونام عامة الناس جاء المذكورون إلى بيته ق سراَ، واجتمعوا على بابه يرصدونه، وهم يظنونه نائمًا حتى إذا قام وخرج وثبوا عليه، ونفذوا ما قرروا فيه .

وكانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنية، حتى وقفأبو جهل وقفة الزهو والخيلاء، وقال مخاطبَا لأصحابه المطوقين في سخرية واستهزاء : إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها .

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل في وقت خروجه ق من البيت، فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر، ولكن الله غالب على أمره، بيده ملكوت السموات والأرض، يفعل ما يشاء، وهو يجير ولا يجار عليه، فقد فعل ما خاطب به الرسول ق فيما بعد :

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [سورة الأنفال: الآية 30](75).

75) الرحيق المختوم ، 128/1

وقد فشلت قريش في خطتهم فشلًا ذريعًا مع غاية التيقظ والتنبه إذ خرج رسول الله ص من البيت، واخترق صفوفهم، وأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذره على رءوسهم، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وهو يتلو :

وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ [سورة يس: الآية 9]

فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ومضىإلى بيت أبي بكر، فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلًا حتى لحقا بغار ثَوْرفي اتجاه اليمن .

وبقى المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر، وقبيل حلولها تجلت لهم الخيبة والفشل، فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم، ورآهم ببابه فقال :ما تنتظرون ؟ قالوا : محمدًا . قال : خبتم وخسرتم، قد والله مر بكم، وذر على رءوسكم التراب، وانطلق لحاجته، قالوا : والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم .

ولكنهم تطلعوا من صير الباب فرأوا عليَا، فقالوا : والله إن هذا لمحمد نائمًا عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا . وقام عليّ عن الفراش، فسقط في أيديهم، وسألوه عن رسول الله ق، فقال : لا علم لي به (76).

76) الرحيق المختوم ، 129/1

غادر الحبيب محمد ق بيته في ليلة 27 من شهر صفر سنة 14 من النبوة الموافق 13/12 سبتمبر سنة 622م . وأتى إلى دار رفيقه وأمنّ الناس عليهفي صحبته وماله ـ أبي بكر ت. ثم غادر منزل الأخير من باب خلفي؛ ليخرجا من مكة على عجل وقبل أن يطلع الفجر .

ولما كان الحبيب محمد ق يعلم أن قريشًا سَتَجِدُّ في الطلب، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالًا، فسلك الطريق الذي يضاده تمامًا، وهو الطريق الواقع جنوب مكة، والمتجه نحو اليمن سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثَوْر وهو جبل شامخ، وَعِر الطريق، صعب المرتقي، ذو أحجار كثيرة، فحفيت قدما رسولالله ق، وقيل : بل كان يمشى في الطريق على أطراف قدميه كي يخفي أثره فحفيت قدماه، وأيا ما كان فقد حمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل، وطفق يشتد بهحتى انتهي به إلى غار في قمة الجبل عرف في التاريخ بغار ثور(77) .

77) الرحيق المختوم ، 130/1

قالت عائشة ل: .... ثم لحق رسول الله ص وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمنا(78) فيه ثلاث ليالٍ يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام، شاب ثقف(79) لقن(80)، فيدلج(81) من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يَكتادان(82) به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك، حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليها حين تذهب ساعة من العشاء فيبتان في رِسَل- وهو لبن منحتهما ورضيفهما(83) - حتى ينعق(84) بها عامر بن فهيرة بغلس(85) يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ص وأبو بكر رجلا من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي هاديا خريتا- والخريت الماهر- بالهداية قد غمس حلفاً(86) في آل العاص ابن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر به فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل»(87).

78) كمنا فيه: أي استترا واستخفيا .
79) ثَقِفْ: ذو فطنة وذكاء والمراد ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، النهاية
80) لقن: فهم حسن التلقي لما يسمعه
81) يدلج: أدلج إذا سار أول الليل وادّلج بالتشديد إذا سار آخره.
82) يُكتادان: أي يطلب لهما فيه المكروه وهو من الكيد.
83) الرضيف: اللبن المرضوف، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحماة ليذهب وَخَمُه.
84) ينعق: نعق بغنمه، أي صاح بها وزجرها
85) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح
86) غمس حلفاً: أي أخذ بنصيب من عقدهم وحلفهم يأمن به.
87) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي رقم 3905.

ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر : والله لا تدخله حتى أدخل قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخل فكسحه، ووجد في جانبه ثقباَ فشق إزاره وسدها به وبقى منها اثنان فألقمهما رجليه، ثم قال لرسول الله ص : ادخل، فدخل رسول اللهق، ووضع رأسه في حجره ونام، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ق، فسقطت دموعه على وجه رسول اللهق، فقال : (ما لك يا أبا بكر ؟) قال : لدغت، فداك أبي وأمي، فتفل رسول الله ق، فذهب ما يجده(88) .

أما قريش فقد جن جنونها حينما تأكد لديها هجرة الحبيب محمد ق صباح ليلة تنفيذ المؤامرة . فأصبحوا مثل الثور الهائج ، وأخذوا كل من رأوا أن له دورا في الهجرة ، وأذاقوه الأذى .....أما علياَ فقد ضربوه ، وسحبوه إلى الكعبة وحبسوه ساعة، علهم يظفرون بخبرهما ، وأسماء ذات النطاقين- التي ساهمتفي تموين الرسول ق وصاحبه في الغار بالماء والغذاء- فقد فقالت – عما فعلوه لها - : «لما خرج رسول الله ص وأبو بكر ت أتانا نفر من قريش، فيهمأبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر،

88) المحب الطبري ، الرياض النضرة في مناقب العشرة ، ص45

فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده- وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدي لطمه طرح منها قرطي قالت: ثم انصرفوا...» (89).

وقد فزع مشركوا قريش لهجرة الحبيب محمد ق وخروجه من مكة أشد الفزع، فطاردوه في كل مكان وقعدوا له كل مرصد، وتتبعوا آثاره وآثار صاحبه وأخذوا على الطرقات بالرصد ، كما قرروا إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين، كائنًا من كان .

وحينئذ جدت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر في الطلب، وانتشروا في الجبال والوديان، والوهاد والهضاب، وعندما أحاط المشركون بالغار، وأصبح منهم رأي العين ، ولكن الله غالب على أمره، فرجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة .

روى البخاري عن أنس عن أبي بكر قال : كنت مع النبي ص في الغار فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت : يا نبي الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا.قال:(اسكت يا أبا بكر، اثنان، الله ثالثهما)، وفي لفظ:(ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما) (90).

---

89) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 235/3

90) البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين رقم 3653.

يقول تعالى:

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [سورة التوبة: الآية 40]. حين ضاقت قريش بمحمد ذرعاً، كما تضيق القوة الغاشمة دائماً بكلمة الحق، لا تملك لها دفعاً، ولا تطيق عليها صبراً، فائتمرت به وقررت أن تتخلص منه فأطلعه الله على ما أتمرت به، وأوحى إليه بالخروج وحيداً إلا من صاحبه الصديق، لا جيش ولا عدة، وأعداؤه كثر، وقوتهم إلى قوته ظاهرة.ثم ماذا كانت العاقبة، والقوة المادية كلها من جانب، والرسول قمع صاحبه منها مجرد؟ كان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [سورة التوبة: الآية 40].

وظلت كلمة الله في مكانها العالي منتصرة قوة نافذة.

ذلك مثل على نصرة الله لرسوله ولكلمته، والله قادر على أن يعيده على أيدي قوم آخرين غير الذين يتثاقلون ويتباطأون. وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجة بعد قول الله إلى دليل(91).

أحداث علي طريق الهجرة :

حين خمدت نار الطلب، وهدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى، تهيأ رسول الله ص وصاحبه للخروج إلى المدينة .

وقد وقعت للحبيب محمد ق وصاحبه أبو بكر عدة أحداث في طريق الهجرة إلي المدينة المنورة نذكر منها :

روى البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق، لا يمر فيه أحد، فرفعت لنا صخرة طويلة، لها ظل لم تأت عليها الشمس، فنزلنا عنده، وسويت للنبي ق مكانًا بيدي، ينام عليه، وبسطت عليه فروه، وقلت : نم يا رسول الله، وأنا أنفض لك ما حولك، فنام، وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة، يريد منها مثل الذي أردنا، فقلت له : لمن أنت يا غلام ؟

91) في ظلال القرآن ، 1656/3

فقال : لرجل من أهل المدينة أو مكة . قلت : أفي غنمك لبن ؟ قال : نعم . قلتأفتحلب ؟ قال : نعم . فأخذ شاة، فقلت : انفض الضرع من التراب والشعر والقَذَى، فحلب في قعب كُثْبة من لبن، ومعي إداوة حملتها للنبي ق، يرتوي منها، يشرب ويتوضأ، فأتيت النبي ص فكرهت أن أوقظه، فوافقته حين استيقظ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله، فقلت : اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قال : (ألم يأن للرحيل ؟) قلت : بلى، قالفارتحلنا(92) .

وكان من دأب أبي بكر رضي الله عنه أنه كان ردفًا للنبي ق، وكان شيخًا يعرف، ونبي الله ق شاب لا يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : من هذا الرجل الذي بين يديك ؟ فيقول : هذا الرجل يهديني الطريق، فيحسب الحاسب أنه يعنى به الطريق، وإنما يعنى سبيل الخير ، لأنه ق قال لأبى بكر أله الناس أي أشغل الناس عنى أي تكفل عنى بالجواب لمن سأل عنى فإنه لا ينبغي لنبي أن يكذب ولو في صورة التورية فكان أبو بكر يقول لمن سأله عن النبي ص ما ذكر وإنما لم يسأل أبو بكر عن نفسه لأن أبا بكر كان معروفا لهم لأنه كان يكثر المرور عليهم في التجارة للشام أي معروفا لغالبهم (93).

---

92) محمد بن عمر بحرق الحضـرمي الشـافعي ، حدائق الأنوار ومطالع الأسـرار في سـيرة النبي المختار ، تحقيق محمد غسان نصوح عزقول ، دار الحاوي ، 1998م ، ص 213

93) السيرة الحلبية ، 215/2

بعدما أعلنت قريش في نوادي مكة بأنه من يأتي بالنبي ص حياً أو ميتاً، فله مائة ناقة وانتشر هذا الخبر عند قبائل الأعراب الذين في ضواحي مكة وطمع سراقة بن مالك بن جعشم في نيل الكسب الذي أعدته قريش لمن يأتي برسول الله ص فأجهد نفسه لينال ذلك، ولكن الله بقدرته التي لا يغلبها غالب جعله يرجع مدافعاً عن رسول الله ص بعدما كان جاهداً عليه.

قال سراقة بن مالك: جاءنا رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله ص وأبي بكر دية كل منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجالس من مجالس قومي بني مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: ياسراقة إني رأيت آنفاً أسودة(94) بالساحل أراها محمد وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهومن وراء أكمة(95) فتحبسهما علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه(96) الأرض خضضت عالية حتى أتيت فرسي فركبتها فعرفتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقمت فأهويت إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام (97)،

94) أسودة: جمع قلة لسواد وهو الشخص يرى من بعيد أسود
95) الأكمة: جمعها إكام، وهي الرابية.
96) الزج: الحديدة في أسفل الرمح.
97) الأزلام: الأقداح التي كانت في الجاهلية مكتوب عليها الأمر والنهي افعل ولا تفعل.

فاستقسمت بها، أضرهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي عصيت الأزلام فقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول اللهق وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت (98) يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عثات(99) ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول اللهق فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناسبهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني(100) ولم يسألاني إلا أن قال: أخف عنا فسألته أن يكتب لي في كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم(101) ثم مضى رسول الله ص (102). وكان مما أشتهر عند الناس من أمر سراقة ما ذكره ابن عبد البر وابن حجر وغيرهما، قال ابن عبد البر: روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن أن رسول الله ص قال لسراقة بن مالك: (كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟) قال: فلما أتى عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها،

---

98) ساخت يدا فرسي: أي غاصت في الأرض.
99) عثات: أي دخان، وجمعه عواثن على غير قياس
100) فلم يرزاني: أي لم يأخذا مني شيئاً.
101) أديم: قطعة من جلد.
102) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، رقم 3906.

وكان سراقة رجلاً أزب(103) كثير شعر الساعدين، وقال له: ارفع يديك فقال: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مدلج، ورفع بها عمر صوته ثم أركب سراقة، وطيف به المدينة، والناس حوله، وهو يرفع عقيرته مردداً قول الفاروق: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهماسراقة بن جعشم أعرابياً من بني مدلج (104).

وبعد ثلاث ليال من دخول الحبيب محمد ق في الغار خرج ق وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطلب، ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله، وقد وكان الحبيب محمد ق وأبا بكر قد استأجرا رجلاً من بني الديل يسمى عبد الله بن أريقط وكان مشركاً وقد أمِناهُ فدَفعا إ ليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدد وسلك بهما طريقاً غير معهودة ليخفي أمرهما عمن يلحق بهم من كفار قريش، وفي الطريق إلى المدينة مرّ النبي ص بأم معبد(105)،

103) التزبب في الانسان: كثر الشعر وطوله.

104) الروض الأنف، 218/4؛أبو شهبة ،السيرة النبوية ، 495/1

105) هي عاتكة بنت كعب الخزاعية.

في قديد(106)، حيث مساكن خزاعة وهي أخت حبيش بن خالد الخزاعي الذي روى قصتها، فعن خالد بن حبيش الخزاعيت صاحب رسول الله ص: (أن رسول الله ص حين خرج من مكة، وخرج منها مهاجراً إلى المدينة، هو وأبو بكر ت ، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة ت ، ودليلهما الليثي عبد الله بن الأريقط، مرّوا على خيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت برزة(107) جلدة(108)، تحتبي(109) بفناء القبةثم تسقي وتطعم، فسألوهما لحماً وتمراً؛ ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مُرْمِلين(110) مُسْنِتين(111)، فنظر رسول الله ص إلى شاة في كسر الخيمة(112)، فقال: (ما هذه الشاة يا أم معبد؟). قالت: خلفها الجَهد عن الغنم، قال: (فهل بها من لبن؟) قالت: هي أجهد من ذلك. قال(أتأذنين أن أحلبها؟). قالت: بلى بأبي أنت وأمي، نعم إن رأيتبها حَلْباً فاحلبها.

106) وادي قديد يبعد عن الطريق المعبدة حوالي ثمانية كليومترات.
107) برزة: كلهة كبيرة السن، لا تحتجب احتجاب الشواب.
108) جلدة: قوية صلبة وقيل عاقلة.
109) تحتبي: أي تجلس وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى، على ركبتيها، وتلك جلسة الأعراب.
110) مرملين: نفذ زادهم.
111) مسنتين: أي داخلين في اسنة وهي الجدب والمجاعة والقحط.
112) كسر الخيمة: بفتح الكاف وكسرها، وسكون المهملة: أي جانبها.

فدعا بها رسول الله ص ، فمسح بيده ضرعها، وسمى الله عز وجل، ودعا لها في شاتها، فتفاجّت(113) عليه، ودّرت(114)، واجترت(115) ودعا بإناء يُرْبض(116) الرهط، فحلب فيها ثجّا(117)، حتى علاه البهاء(118)، ثم سقاها حتى رَويت، وسقى أصحابه حتى رَووا، وشرب آخرهم - ق -، ثم أراضوا(119)، ثم حلب فيها ثانياً بعد بدء حتى ملاء الإناء، ثم غادره عندها، ثم بايعها، وارتحلوا عنها.

فقلّما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافا(120)، يتساوكن هُزلا(121) ضحى، مخَّهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب، وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد، والشاة عازب حيال(122)،

---

113) تفاجَّت: فتحت مابين رجليها للحلب.
114) دَرَّت: أرسلت اللبن.
115) واجترت: من الجرّة وهي ماتخرجها البهيمة من كرشها تمضغها.
116) يربض: يُريهم حتى يثقلوا فيربضوا، أي يقعوا على الأرض للنوم والراحة.
117) ثجّا: السيلان ومعنى ثجّا: لبناً كثيراً سائلاً.
118) علاه البهاء: أي علا الإناء بهاء اللبن.
119) أراضوا: أي رَوَوا، فنقعوا بالري، يريد شربوا مرة بعد مرة.
120) عجافا: ضد السِّمن، وهو جمع عجفاء وهي المهزولة.
121) يتساوكن هُزلا: يتمايلنّ من الضعف.
122) عازب: بعيدة المرعى لا تأوي الى البيت إلا في الليل، حيال: لم تحمل.

ولا حلوبة في البيت؟ قال: لا والله إلا أنه مرّ بنا رجلٌ مبارك، من حاله كذا وكذا. قال: صفيه لي يا أم معبد قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة(123)، أبلج الوجه(124)، حسن الخلق، لم تَعبّه نُحْلَه(125) ولم تُزْر به صَعْلة(126)، وسيم(127)، في عينيه دعج(128) وفي أشفاره وَطفٌ(129) وفي صورته صَهلٌ(130)، وفي عنقه سطع(131)، وفي لحيته كثاثة، أزجّ(132)، أقرن(133)إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما(134) وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهمن بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق، فصل لا هذر ولا نزر(135)، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن رَبْع(136)

---

123) ظاهر الوضاءة: ظاهر الجمال والحسن.
124) أبلغ الوجه: مشرق الوجه مضيئه.
125) نُحلة : من النحول والدقة والضمور، أي أنه ليس نحيلاً.
126) صَعْلة: صغر الراس وهي تعني الدقة والتحول في البدن.
127) وسيم : الوسيم المشهور بالحسن كأنه صار الحسن له سمة.
128) دعج: شدة سواد العين في شدة بياضها.
129) في أشفاره ظف: الشعر النابت على الجفن.
130) صَهَل: كالبُحَّة وهو ألا يكون حاد الصوت.
131) سطع: طول العنق.
132) أزج: دقيق شعر الحاجبين مع طولهما.
133) أقرن: متصل مابين حاجبين من الشعر، أو مقرون الحاجبين.
134) سما: علا برأسه، أو بيده وارتفع.
135) لاهذر ولا نذر: الهذر من الكلام مالافائدة فيه والنزر: القليل.
136) رَبْع: ليس بالقصير ولا بالطويل.

لا بأس من طول(137)، ولا تقتحمه العين من قصر(138)، غصن بين غصنين، فهو أنظر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، وله تبادروا إلى أمره، محفود(139)، محشود(140)، لا عابس ولا مفند(141).

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا.

فأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون الصوت، ولا يدرون من صاحبه، وهو يقول:

جزى الله ربّ الناس خير جزائه رفيقين قالا(142) خيمتي أم معبد

---

137) لابأس من طول: لايجاوز الناس طولاً.
138) لاتقتحمه العين من قصر: لاتزدريه ولا تحتقره.
139) محفود: مخدوم.
140) محشود: يجتمع الناس حواليه.
141) لاعابس ولا مفند: ليس عابس الوجه ولا منفد: : ليس منسوباً إلى الجهل وقلة العقل.
142) قالا: نزل في وقت القيلولة على الخيمتين.

هما نزلا بالهُدى واهتدت به فقد فاز من أمس رفيق محمد

فيا لَقُصَيَ مازوى الله عنكم به من فعال لا تجاري وسُؤدد(143)

لَيهنِ بني كعب مكانُ فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

دهاها بشاة حائل(144) فتحلّبت عليه صريحاً ضرة الشاة مُزبد(145)

143) وسؤدد: من السيادة.
144) حائل: غير حامل.
145) مزبد: الصريح ومعناها الخالص، والضرة: لحم الضرع.

فغادرها رهناً لديها لحالب يرددها في مصدر ثم مورد(146)

فلما سمع حسان بن ثابت أنشأ يقول مجيبَا للهاتف:

لَقَدْ خَابَ قَومٌ زَالَ عنهم نَبِيّهُم تَرَحّلَ عن قَوْمٍ فَظَلَّتْ عُقُولُهُمْ

هَداهُم بِهِ بَعْد الضَّلالَةِ رَبُّهُمْ وقَدْ نَزَلَتْ مِنهُ عَلَى أهْلِ يَثْرِبِ

نَبِيَ يَرَى مَا لا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وإنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائبِ

لِيَهْنِ أبَا بَكْرٍ سَعَادَةُ جَدِّهِ وقُدَّسَ مَنْ يَسْرِيْ إليْهِم ويَغْتَدِي

146) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 237/3

وحَلَّ عَلَى قَومٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ وأَرْشَدَهُمْ مَن يَتْبَعِ الحقَّ يَرْشُدِ

ركابُ هُدىً حَلَّتْ علَيْهِم بِأَسْعَدِ ويَتْلُوا كِتَابَ اللهِ فِي كُلِ مَسْجِدِ

فَتَصْدِيْقُهَا فِي اليَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الغَدِ بِصُحْبَتِهِ مَنْ يُسْعِدِ اللهُ يَسْعَدِ(147)

قالت أسماء : ما درينا أين توجه رسول الله ص إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات، والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولا يرونه حتى خرج من أعلاها . قالت : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ق، وأن وجهه إلى المدينة (148). وفي الطريق لقي النبي ص بُرِيْدَة بن الحُصَيْب الأسلمى ومعه نحو ثمانين بيتًا فأسلم وأسلموا، وصلى رسول الله ص العشاء الآخرة فصلوا خلفه، وأقام بريدة بأرض قومه حتى قدم على رسول الله ص بعد أُحُد . عن عبد الله بن بريدة تأن نبي الله ق كان لا يتطير ولكن يتفاءل قال وكانت قريش جعلت مائة من الإبل لمن أخذ نبي الله ق فيرده عليهم حيث توجه إلى المدينة فركب بريدة في سبعين راكبا من أهل بيته في بني سهم فتلقى نبي الله ق فقال من أنت قال أنا بريدة فالتفت إلى أبي بكر

147) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 237/3
148) زاد المعاد ، 2/53-54

فقال يا أبا بكر برد أمرنا وصلح ثم قال وممن قال من أسلم قال لأبي بكر سلمنا ثم قال ممن قال من بني سهم قال خرج سهمك فقال بريدة للنبي ق فمن أنت قال أنا محمد عبد الله ورسوله فقال بريدة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك عبده ورسوله فأسلم بريدة وأسلم الذين معه جميعا فلما أصبح قال بريدة للنبي ق لا تدخل يعني المدينة إلا ومعك لواء فحل عمامته ثم شدها في رمحه ثم مشى بين يديه فقال يا نبي الله تنزل علي فقال إن ناقتي هذه مأمورة فسارت حتى وقفت على باب أبي أيوب فقال بريدة الحمد لله الذي أسلمت بنو سهم طائعين غير مكرهين (149).

وقد غزا مع الرسول ق ست عشرة غزوة وأصبح بريدة بعد ذلك من الدعاة إلى الإسلام وفتح الله لقومه أسلم على يديه أبواب الهداية، واندفعوا إلى الإسلام وفازوا بالوسام النبوي الذي نتعلم منه منهجاً فريداً في فقه النفوس. قالق: (أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها، أما والله ما أنا قلته ولكن الله قاله) (150).

---

149) محيي السنة الحسين بن مسعود البغوي، الأنوار في شمائل النبي المختار ، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه العلامة الشيخ إبراهيم اليعقوبي ، دار الضياء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1409هـ -1989م ، 377/1

150) صحيح الجامع الصغير ، 328/1، رقم 986.

ومر رسول الله ص بأبي أوْس تميم بن حَجَر أو بأبي تميم أوس بن حجر الأسلمى، بقحداوات بين الجُحْفَة وهَرْشَى ـ بالعرج ـ وكان قد أبطأ عليه بعض ظهره، فكان هو وأبو بكر على جمل واحد، فحمله أوس على فحل من إبله وبعث معهما غلامًا له اسمه مسعود، وقال : اسلك بهما حيث تعلم من محارم الطريق ولا تفارقهما،

فسلك بهما الطريق حتى أدخلهما المدينة، ثم رد رسول الله ص مسعودًا إلى سيده، وأمره أن يأمر أوسًا أن يسم إبلهفي أعناقها قيد الفرس، وهو حلقتان، ومد بينهما مدًا، فهي سمتهم . ولما أتى المشركون يوم أحد أرسل أوس غلامه مسعود بن هُنَيْدَة من العَرْج على قدميه إلى رسول الله ص يخبره بهم ، وقد أسلم بعد قدوم رسول الله ص المدينة وكان يسكن العرج (151).

وفي الطريق ـ في بطن رِئْم ـ لقى رسول الله ص الزبير بن العوام ، وهو في ركب من المسلمين، كانوا تجارًا قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ص وأبا بكر ثيابًا بياضًا(152)وكذا روى أصحاب السيَر أن طلحة بن عبيد الله لقيهما أيضاً وهو عائد من الشام وكساهما بعض الثياب(153).

151) ابن الأثير ، أسد الغابة ، 92/1 ، الرحيق المختوم ، ص 134
152) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 490/1 ، رواه البخاري ، 554/1
153) أبو شهبة ، السيرة النبوية ، 495/1

وفي طريق الهجرة أسلم لصّان على يدي الحبيب محمد ص:

فقد كان في طريقه ق بالقرب من المدينة لصّان من أسلم يقال لهما المهانان، فقصدهم ق وعرض عليهما الإسلام فاسلما ثم سألهما عن أسمائهما فقالا نحن المهانان، فقال: بل المكرمان، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده : ......قال ابن سعد: حدثني أبي أن رسول الله ص أتاهم ومعه أبو بكر - وكانت لأبي بكر عندنا بنت مسترضعة - وكان رسول الله ص أراد الاختصار في الطريق إلى المدينة، فقال لها سعد هذا الغائر من رَكوبة وبه لِصَّان من أسلَم يقال لهما: المُهانان، فإن شئت أخذنا عليهما.، فقال النبي ص " خذ بنا عليهما " قال سعد فخرجنا حتى إذا أشرفنا إذا أحدهما يقول لصاحبه هذا اليماني. فدعاهما رسول الله ص فعرض عليهما الإسلام فأسلما، ثم سألهما عن أسمائهما فقالا: نحن المهانان.فقال: " بل أنتما المكرمان " وأمرهما أن يقدما عليه المدينة فخرجنا حتى إذا أتينا ظاهر قباء فتلقاه بنو عمرو بن عوف فقال رسول الله ق: " أين أبو أمامة أسعد بن زرارة ؟ " فقال سعد بن خيثمة.إنه أصاب قبلي يا رسول الله أفلا أخبره ذلك ؟ ثم مضى رسول الله ص حتى إذا طلع على النخل فإذا الشرب مملوء، فالتفت رسول الله إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر هذا المنزل.

رأيتني أنزل إلى حياض كحياض بنى مدلج " (154) وفي هذا الخبر يظهر اهتمامه ق بالدعوة إلى الله حيث اغتنم فرصة في طريقه ودعا اللصين إلى الإسلام، فأسلما، وفي إسلام هذين اللصين مع ما ألفاه من حياة البطش والسلب والنهب دليل على سرعة إقبال النفوس على إتباع الحق إذا وجد من يمثله بصدق وإخلاص، وتجردت نفس السامع من الهوى المنحرفوفي اهتمام الرسول ق بتغيير اسمّي هذين اللصين من المهانَين إلى المكْرَمَين دليل على اهتمامه ق بسمعة المسلمين ومراعاته مشاعرهم إكراماً لهم ورفعاً لمعنوياتهم.

وإن في رفع معنوية الإنسان تقوية لشخصيته ودفعاً له إلى الأمام ليبذل كل طاقته في سبيل الخير والفلاح(155).

154) أخرجه أحمد في مسند ج 4 / 74، وانظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، 239/3

155) الحميدي ،التاريخ الاسلامي ، 178/3، الصلابي ، السيرة النبوية ، 347/1

النزول بقباء

وفي يوم الاثنين 8 ربيع الأول سنة 14 من النبوة ، وهي السنة الأولى من الهجرة ـ الموافق 23 سبتمبر سنة 622م نزل الحبيب محمد ق بقباء .وكان المسلمون بالمدينة لما سمعوا بخروج الحبيب محمد ص من مكة، كانوا يفدون كل غداة إلى الحرة، فينتظرون حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم(156)

من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر رسول الله ص وأصحابه مبيضين(157) يزول بهم السراب(158)، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العربهذا جدكم(159) الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا الحبيبمحمد ق بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمن حتى نزل بهم في بني عوف، وذلك يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ص صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار، ممن لم ير رسول الله ص يحيي أبا بكرحتى أصابت الشمس رسول الله ص ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله ص عند ذلك (160).

---

156) أطم: كالحصن.
157) مبيضين: علهيم ثياب بيض.
158) السراب: أي يزول بهم السراب عن النظر بسبب عروضهم له.
159) جدكم: حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه.
160) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي (77/5، 78).

وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال، وكان يومًا مشهودًا لم تشهد المدينة مثله في تاريخها ، .....قال ابن القيم : وسُمِعت الوَجْبَةُ والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحًا بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحى ينزل عليه :

إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ [سورة التحريم: الآية 4] (161) .

ونزل رسول الله ص بقباء على كلثوم بن الهدم، وقيل : بل على سعد بن خَيْثَمَة، والأول أثبت .

ومكث على بن أبي طالب ت بمكة ثلاثًا حتى أدى عن رسولالله ق الودائع التي كانت عنده للناس، ثم هاجر ماشيًا على قدميه حتى لحقهما بقباء، ونزل على كلثوم بن الهَدْم (162).

ولبث الحبيب محمد ق في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة(7) وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله ص ، ثم ركب راحلته (163).

161) ابن القيم ، زاد المعاد ، 50/3

162) ابن القيم ، زاد المعاد ، 50/3

163) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي (77/5، 78).

الدخول في المدينة :

وبعد أن أقام رسول الله ص المدة التي مكثها بقباء وأراد أن يدخل المدينة أرسل إلى الأنصار، فجاءوا إلى نبي الله ق (وهم متقلدون سلاحهم، فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب نبي الله ق وأبو بكر وحفو دونهما بالسلاح(164).

وعند وصوله ق إلى المدينة أخذ أهل المدينة يقولون: (جاء نبي الله، جاء نبي الله ق ، فأشرفوا ينظرون ويقولون جاء نبي الله) (165).

فكان يوم فرح وابتهاج لم تر المدينة يوماً مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في يوم عيد، ولقد كان حقاً يوم عيد، لأنه اليوم الذي انتقل فيه الإسلاممن ذلك الحيز الضيق في مكة إلى رحابة الانطلاق والانتشار بهذه البقعة المباركة المدينة، ومنها إلى سائر بقائع الأرض لقد أحس أهل المدينة بالفضل الذي حباهم الله به، وبالشرف الذي اختصهم به أيضاً، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله ص وصحابته المهاجرين،

---

164) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، رقم 3911.
165) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، رقم 3911.

ثم لنصرة الإسلام كما أصبحت موطناً للنظام الإسلامي العام التفصيلي بكل مقوماته، ولذلك خرج أهل المدينة يهللون في فرح وابتهاج ويقولون يا رسول الله يا محمد يا رسول الله(166).

روى الإمام مسلم بسنده قال: (عندما دخل رسول الله ص المدينة، صعد الرجال والنساء فوق البيوت وتفرق العلماء والخدم في الطرق ينادون يا محمد يا رسول الله، يا محمد، يا رسول الله!!) (167).

وقال أحد شهود العيان وهو الصحابي البراء بن عازب ب: «ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول اللّه ق» (168).

وكان دخول الحبيب محمد ق المدينة يوما مشهوداً أغر ، ارتجت فيه البيوت والسكك بأصوات الحمد والتسبيح، وتغنت بنات الأنصار بغاية الفرح والسرور ، عن عائشة ل لما قدم رسول الله ص المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

166) أحزمي سامعون جزولي، الهجرة في القرآن الكريم، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1417هـ- 1996م،ص353.

167) مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث الهجرة، رقم 2009.

168) البخاري- الصحيح (فتح الباري 7/ 260).

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

ومنذ ذلك اليوم الأغر سميت يثرب بمدينة الرسول ق، ويعبر عنها بالمدينة مختصراَ (169).

والحقيقة أن الأنصار وإن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ق عليه، فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته : هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم :(خلوا سبيلها فإنها مأمورة) ، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلًا، ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك في بني النجار ـ أخواله ق ـ

---

169) صـحيح البخاري ، 555/1 ، والبيهقي في دلائل النبوة ، وأنظر : انظر البداية والنهاية 3 / 197، علي بن برهان الدين الحلبي ،السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، 235/2

وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله، يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ص في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله فأدخله بيته،فجعل رسول الله ص يقول : (المرء مع رحله) ، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته، فكانت عنده .وفي رواية أنس عند البخاري، قال نبي الله ق : (أي بيوت أهلناأقرب ؟) فقال أبو أيوب : أنا يا رسول الله، هذه دارى، وهذا بأبي . قال : (فانطلق فهيئ لنا مقيلًا) ، قال : قوما على بركة الله (170) .

ولما استقر الحبيب محمد ق بالمدينة أرسل زيد بن حارثة وأبا رافعإلى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله، وأرسل معهما عبد الله بن أُرَيقط يدلهما على الطريق، فقَدما بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه عليه الصلاة والسلام، وسَودة زوجه وأم أيمن زوج زيد وابنهما أسامة، وأما زينب فمنعها زوجها أبو العاص بن الربيع وخرج مع الجميع عبد الله بن أبي بكر بأمّ رومان، زوج أبيه، وعائشة أخته، وأسماء زوج الزبير بن العوّام، وكانت حاملاً بابنها عبد الله، وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة (171) .

---

170) صحيح البخاري ، 556/1

171) ابن القيم ، زاد المعاد ، 55/2 ، الرحيق المختوم ، 171/1

وفي الحقيقة أن هجرة الحبيب محمد ق وأصحابه عن البلد الأمين تضحية عظيمة فلم ينس المهاجرون وطنهم الأول في البلد العتيق، مهد مولدهم ومغنى صباهم ومثوى آبائهم من قديم الزمان ، وما انقطع ما بينهم وبين أم القرى وما طووا ما كان لهم فيها من ذكريات و بقيت مكة مهوى أفئدتهم كما هي مهوى أفئدة الأنصار وسائر العرب.

وما كان الفراق سهلا، ولا كان في المهاجرين من ودعها إلا وقلبه مثقل بالشجن، وقد عبر الحبيب محمد ق ذلك الشجن بقوله:(والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت) (172).

ورغم ما حفلت به الأيام الأولى في دار الهجرة، من مراسم الترحيب والإخاء وشواغل التنظيم للمجتمع الإسلامي الجديد، كانت وطأة الحنين ترهق أكثرهم فترهف حساسيتهم لتغير الجو ! وألم بكثير منهم سقم وأجهدتهم الحمى.

وفي هذيان الحمى كان المطوي من أشواقهم ومكبوت حنينهم، يتنفس مفلتا من أعماق أفئدتهم، إلى ألسنتهم. فعن عائشة ل قالت: لما قدم رسول الله ص المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى، وكان واديها يجري نجلاً - يعني ماءَ آجناً - فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم وصرف الله ذلك عن نبيه. قالت:

172) الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة (722/5) رقم 3925.

فكان أبو بكر، وعامر بن فهيرة، وبلال في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فاستأذنت رسول الله ص في عيادتهم فأذن، فدخلت إليهم أعودهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب وبهم مالا يعلمه إلا الله من شدة الوعك(173)، فدنوت من أبي بكر فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ فقال:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

قالت: فقلت والله ما يدري أبي ما يقول. ثم دنوت من عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه(174) كالثور يحمي جلده بروقه(175)

173) الوغك: الحمى.
174) بطوقه: بطاقته.
175) بروقه: بقرنه.

قالت: فقلت: والله ما يدري عامر ما يقول. قالت: وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى اضطجع بفناء البيت ثم يرفع عقيرته(176) ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر(177) وجليل

وهل أرِدَن يوماً مياه مَجِنَة وهل يبدون لي شامة وطفيل(178)

قالت: فأخبرت رسول الله ص بذلك فقال:(اللهمّ حبَب إلينا المدينة كحبنا مكة، أو أشد، اللهمّ وصحِّحها وبارك لنا في مدها وصاعها وانقل حمّاها واجعلها بالجحفة) (179).
وقد استجاب الله دعاءه ق، فأرى في المنام أن امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت بالمَهْيَعَة، وهي الجحفة . وكان ذلك عبارة عن نقل وباء المدينة إلى الجحفة، وبذلك استراح المهاجرون عما كانوا يعانونه من شدة مناخ المدينة (180).
وبهذا قد تمت هجرته ق وهجرة أصحابه ي ؛ ولم تنته، الهجرة بأهدافها وغاياتها ،

---

176) عقيرته: صوته
177) الأذخر: نبات طيب الرائحة.
178) شامة وطفيل: جبلان مشرفان على مجنة على بريد مكة.
179) البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء يرفع الوباء والوجع، رقم 6372.
180) منير الغضبان، التربية القيادية، دار الوفاء، المنصورة، مصر 1418هـ - 1998م، 310/2 ، الرحيق المختوم ، 136/1

حيث بدأ الحبيب محمد ق يؤسس الدولة الإسلامية الكبرى التي أذن الله لها -فيما بعد- أن تمتد في كل اتجاه وتضم بين ذراعيها أقوى دولتين كانتا تتحكمان في هذا العالم، وهما: دولة الفرس ودولة الروم.

المدينة أرض الهجرة :

تقع يثرب(المدينة) على بعد حوالي ثلاثمائة ميل في شمال مكة ، وهي واحة خصيبة التربة غزيرة المياه بين الصحراء ، تحيط بها تربة بركانيةتعرف بالحرتين (181) وهما حرة واقم في الشرق، وحرة الوبرة في الغرب وهما اللتان أشار اليهما الحبيب محمد ق حينما قال : «قد أريت دار هجرتكم، أريت سبخة(182) ذات نخل بين لابتين(183)، وهما الحرتان .....(184).

وتكتنف الوديان الحرتين من الشرق ومن الغرب، وتحيط بالمدينة من جهاتها الأربع. ويقع جبل عير في الجنوب الغربي من يثرب.

181) والحرة ذات الحجارة السوداء
182) السَبَخة : الأرضُ التي تعْلُوها المُلُوحة ولا تكادُ تُنْبِت إلا بعضَ الشجَر
183) اللابة : الصحراء
184) ابن سعد، الطبقات الكبري226/1

وتقع قرية قباء في جنوب المدينة على ميلين منها، وبين قباء والمدينة يسير وادي بطحان ووادي رانوناء حيث يتجهان شمالًا فيما بين حرة الوبرة والمدينة وتبدو أودية المدينة منحدرة من الجنوب إلى الشمال، تسير في انحدارها مياه الأمطار فتجعل منها جنات ذات زرع زاهي الخضرة وبساتين تنبت أشجار الفاكهة والنخيل(185).

والمنطقة بين قباء والمدينة من أخصب مناطقها، بل لعلها أخصبها وهي التي تثمر جل فاكهتها وخضرها، ومن ثم كانت منتزه أهل يثرب ومصحتهافي مختلف العصور، يخرج إليها الناس للتريض، ويقيم بها الناقهون استعادة النشاط والقوة.

وحرة واقم التي تحد المدينة من الشرق كانت أكثر عمرانًا من الوبرة، وحين هاجر الحبيب محمد ص إلى يثرب سنة 622 م كانت حرة واقم مسكونة بأهم قبائل اليهود من بني النضير وقريظة، وعدد من عشائر اليهود الأخرى، كما كانت تسكنها أهم البطون الأوسية: بنو عبد الأشهل، وبنو ظفر، وبنو حارثة، وبنو معاوية وفي منازل بني عبد الأشهل كان يقوم حصنهم واقم الذي سميت الحرة باسمه. وقد كانت هذه الحرة ميدانًا حرب منذ استقر الإسلام بالمدينة؛

185) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، دار الفكر العربي ، ص239 ،

فقد حاصر النبي ص اليهود من بني النضير حتى أجلاهم، ثم حاصر بني قريظة حتى قضى عليهم وبها وقعت موقعة الحرة في عهد يزيد بن معاوية سنة 63هـ.

وحرة الوبرة التي تحد المدينة من الغرب، تبدأ قبالة قباء من الجنوب وبأقصى حرة الوبرة من ناحية الشمال تقع بئر رومة، وكانت مملوكة لرجل يهودي كان يبيع ماءها للمسلمين فاشتراها منه عثمان بن عفان استجابة لرغبة النبي ص ودفع ثمنها عشرين ألف درهم.

وفي شمال المدينة جبل أحد، يفصل بينها وبينه وادي قناة. وفي جنوب هذا الوادي إلى الشمال الغربي من المدينة يقع جبل سلع، وبه النتوء الذي يعرف بجبل عين، وعليه كان موقف الرماة من المسلمين يوم أحد (186).

وكان من حكمة الله تعالى في اختيار المدينة، داراً للهجرة، ومركزاً للدعوة ، لما حباها الله به من مميزات جغرافية انفردت بها عن غيرها من مدن بلاد شبه جزيرة العرب ومنها :

---

186)أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، دار الفكر العربي ، ص240 ،

إنها امتازت بتحصن طبيعي حربي، لا تزاحمها في ذلك مدينة قريبة في الجزيرة، فكانت حرة الوبرة، مطبقة على المدينة من الناحية الغربية وحرة واقم، مطبقة على المدينة من الناحية الشرقية، وكانت المنطقة الشماليةمن المدينة، هي الناحية الوحيدة المكشوفة (وهي التي حصنها رسول الله ص بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب) وكانت الجهة الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة، لا يمر منها الجيش إلا في طرق ضيقة لا يتفق فيها النظام العسكري، وترتيب الصفوف.

وكانت خفارات عسكرية صغيرة، كافية بإفساد النظام العسكري ومنعهمن التقدم، يقول ابن اسحاق:(كان أحد جانبي المدينة عورة، وسائر جوانبها مشككة بالبنيان والنخيل، لا يتمكن العدو منها)(187).

ولعل النبي ص قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهية في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة«قد أريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي»ثم مكث أياماً ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فيخرج إليها، فجعل القوم يتجهون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون .....(188).

---

187) الندوي، السيرة النبوية ، ص157.

188) ابن سعد، الطبقات الكبري226/1

كان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوة وإباء وفروسية وقوة وشكيمة ألفوا الحرية، ولم يخضعوا لأحد، ولم يدفعوا إلى قبيلة أو حكومة إتاوة أو جباية يقول ابن خلدون: ولم يزل هذان الحيان قد غلبوا على يثرب، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك، ويدخل في ملتهم من جاورهم من قبائل مضر.

كان بنو عدي بن النجار أخواله ق ، فأم عبد المطلب بن هاشم بن عدي بن النجار إحدى نسائهم، فقد تزوج هاشم بسلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار، وولدت لهاشم عبد المطلب، وتركه هاشم عندها، حتى صار غلاماً دون المراهقة، وتركه عمه المطلب، فجاء به إلى مكة، وكانت الأرحام يحسب لها حساب كبير في حياة العرب الاجتماعية، ومنهم أبو أيوب الأنصاري الذي نزل الحبيب محمد قفي داره في المدينة.

كان الأوس والخزرج من قحطان، والمهاجرون ومن سبق إلى الإسلام في مكةوما حولها من عدنان ولما هاجر رسول الله ص إلى المدينة، وقام الأنصار بنصره اجتمعت بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام، وكانوا كجسد واحد، وكانت بينهما مفاضلة ومسابقة في الجاهلية،

وبذلك لم يجد الشيطان سبيلاً إلى قلوبهم لإثارة الفتنة والتعزي بعزاء الجاهلية باسم الحمية القحطانية أو العدنانية فكانت لكل ذلك مدينة يثرب أصلح مكان لهجرة الرسول ق وأصحابه واتخاذهم لها داراً وقراراً، حتى يقوى الإسلام ويشق طريقه إلى الأمام، ويفتح الجزيرة ثم يفتح العالم المتمدن(189).

ولقد شرفت المدينة المنورة المباركة وازدادت عظمتها بهجرة الحبيب محمد ق إليها، حتى فضلت على سائر بقاع الأرض حاشا مكة المكرمةوقد نهي الحبيب محمد ق أن تسمي المدينة بيثرب ، فعن البراء بن عازبتقال: قال رسول الله ص: (من سمّى المدينة يثرب فليستغفر الله فإنما هي طابة) وفي رواية :(هي طابة هي طابة هي طابة) (190). والمدينة أشهر أسمائها، وهذا الاسم إذا أطلق أريدت به المدينة المنورة دون غيرها من مدن الدنيا، وقد جاءت الآيات الكثيرة بهذا الاسم،

---

189) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، دار الفكر العربي ، ص240 ، سعيد حوي ، الأساس في السنّة وفقهها ، -العقائد الإسلامية- دار السلام -مصر-، الطبعة الأولى 1409هـ-1989م،333/1

190) أخرجه أحمد (285/4) وضعفه الشوكاني في فتح القدير (268/4).

كقوله تعالى: وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ [سورة التوبة: الآية 101]. مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [سورة التوبة: الآية 120].

وقد وصفت المدينة بالمباركة والمنورة، والمشرفة، وغير ذلك من الأوصاف الفاضلة(191).
وكان الحبيب محمد ق شديد الحب للمدينة ، ولما يستطب الصحابة - في بداية الهجرة - العيش في فيها دعا ق ربه قائلاً: (اللهم حبب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشد) (192)،

191)محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1414 هـ - 1993 م ، 296/3

192) الصلابي ، السيرة النبوية ، 230/1

وعن أنس رضي الله عنه :(أن النبي ص كان إذا قدم من سفر، فنظر إلى جُدُران المدينة ، أوضع راحلته(193)، وإن كانعلى دابة حرّكها من حُبَها) (194).

ودعا لها الحبيب محمد ص لها بضعفي ما في مكة من البركة ، فعن أنس ت عن النبي ص قال:(اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفي ما جعلت بمكةمن البركة) (195)، وعن أبي هريرة ت قال:(كان الناس إذا رأوا أوّل الثمر جاءوا به إلى النبي ص ، فإذا أخذه رسول الله ص قال: (اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا، اللهم إن إبراهيم عبدُك وخليلُك ونبيّك وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه) قال: ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر(196). ووعد الحبيب محمد ص من صبر على شدة المدينة وضيق عيشها بالشفاعة يوم القيامة، فعن سعد بن أبي وقاص تقال رسول الله ق: (المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها(197) وجَهْدِها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة) (198).

---

193) أوضع راحلته: حثها على السرعة.
194) البخاري، كتاب العمرة، باب من اسرع ناقته (620/3) رقم 1802.
195) البخاري، كتاب فضائل المدينة (97/4) رقم 1885.
196) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (1000/2).
197) اللأواء: الشدة وضيق العيش.
198) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (992/2) رقم 1363.

ورغب الحبيب محمد ق في سكني المدينة والعيش فيها وأخبر ق أنه شفيع من عاش ومات في المدينة ، فعن ابن عمر ت قال: قال رسول الله ص (من استطاع أن يموت بالمدينة فليَمت بها، فإني أشفع لمن يموت بها) (199) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدعو بهذا الدعاء: (اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك ق)(200).

وقد استجاب الله للفاروق ت فاستشهد في محراب رسول الله ص وهو يؤم المسلمين في صلاة الفجر.

والإيمان يلجأ إليها مهما ضاقت به البلاد، والأخباث والأشرار لا مقام لهم فيها ولا استقرار، ولا يخرج منها أحد رغبة عنها إلا أبدلها الله خيراً منه من المؤمنين الصادقين ، فعن أبي هريرة ت: قال رسول الله ص : (إن الإيمان ليأرِز(201) إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جُحرها) (202)،

199) أخرجه أحمد (104/2،74) بإسناد صحيح، وصححه ابن حبان رقم 3741.
200) البخاري، كتاب فضائل المدينة، (100/4) رقم 1890.
201) يأرز: ينضم ويجتمع
202)البخاري، كتاب فضائل المدينة (93/4) رقم 1876.

وقال ص : (...والذي نفسي بيده لا يخرج منها أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه ألا إن المدينة كالكير، تخرج الخبث لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد) (203).

وقال ق عن المدينة:(إنها طيبة تنفي الذنوب، كما تنفي النارخبث الفضة) (204).

في رواية (تنفي الخبث) وفي رواية (تنفي الرجال).

وقد تكفل الله بحفظها من كل قاصد إياها بسوء، وتوعد الحبيب محمد ق من أحدث فيها حدثاً، أو آوى فيها مُحدِثاً، أو أخاف أهلها، بلعنة الله وعذابه، وبالهلاك العاجل(205)، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولالله ق:(لايكيد أهل المدينة أحد إلا انماع(206)، كما ينماع الملح في الماء) (207).

---

203) مسلم، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها (1005/2) رقم 1381.

204) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد (356/7) رقم 4050.

205) د. عبد الرحمن البر، ، الهجرة النبوية المباركة ، دار الكلمة، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1997م ، ص162.

206) انماع: ذاب وسال.

207) البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب إثم من كاد أهل المدينة (94/4) رقم 1877.

وقال ق:(المدينة حرم، فمن أحدث فيها حدثاً(208) أو آوى محدثاً(209)، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقْبَلُ منه يوم القيامة عَدْلُ، ولا صَرْفَ) (210).

وقد حرمها الحبيب محمد ق بوحي من الله، فلا يُراق فيها دم، ولا يُحْمل فيها سلاح، ولا يروع فيها أحد، ولا يقطع فيها شجر، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد وغير ذلك ما يدخل في تحريمها قال ق:(إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لأهلها

وإني حرّمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة، وإني دعوت لها في صاعها ومُدِّها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة) (211).

إن هذه الفضائل العظيمة جعلت الصحابة يتعلقون بها، ويحرصونعلى الهجرة إليها، والمقام فيها، وبذلك تجمعت طاقات الأمة فيها ثم توجهت نحو القضاء على الشرك بأنواعه، والكفر بأشكاله وفتحوا مشارق الأرض ومغاربها(212).

---

208) الحدث: الأمر المنكر الذي ليس بمعروف في السنّة.
209) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (999/2) رقم 1371.
210) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (999/2) رقم 1371.
211) البخاري، كتاب البيوع، باب بركة صالح النبي ومده (346/4) رقم 2129.
212) الصلابي ، السيرة النبوية ، 323/1

الوضع في المدينة عند الهجرة:

كان في المدينة عند الهجرة إليها عدد من عناصر الضعف، أو المعضلاتالتي لها من الخطورة ما كان من شأنه القضاء على هذه الدولة الناشئة، لولا اليقظة الشديدة والسياسة المرنة التي عالج بها الحبيب محمد ق أمر هذه المعضلات.

أولاً : العصبية القبلية :

أولي عوامل الضعف التي واجهها الحبيب محمد ق في المدينة هي العصبية القبلية التي قطعت أوصال عنصرا العرب الأوس والخزرج ، بالرغم من انحدارهما من أصل واحد ، فيقول أصحاب الأنساب: إن الأوس والخزرج أخوان، فهما أبناء ثعلبة بن عمرو بن مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد. فهم بذلك أحد فروع الأزد اليمنية (213): وأمهما قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء. ولذلك عرفوا ببني قيلة نسبة إلى أمهم التي تنتسب إلى الغساسنة ملوك عرب الشام(214).

---

213) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب، ص 112.
214) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب،ص 351.

وكانت كل قبيلة من القبيلتين تنقسم إلى خمسة أبطن كبرى، انقسمت بدورها إلى بطون أصغر منها وإلى عشائر، حتى بلغت البطون المعروفة من القبيلتين أكثر من أربعين بطنًا، عدا من كان يعايشها من عشائر عربية أخرى اتصلت بها برابطة الولاء. وقد سكنت بطون الأوس المنطقة الجنوبية والشرقية وهي منطقة العوالي من يثرب؛ بينما سكنت بطون الخزرج المنطقة الوسطى الشمالية وهي سافلة المدينة وليس وراءهم شيء في الغرب إلا خلاء حرة الوبرة.

وبطون الأوس الكبرى خمسة أبطن هي: عوف بن مالك، وعمرو بن مالك وهم النبيت، ومرة بن مالك، وجشم بن مالك، وامرؤ القيس بن مالك.

وبطون الخزرج الكبرى أيضًا خمسة أبطن هي: عمرو بن الخزرج، وعوفبن الخزرج، وجشم بن الخزرج، وكعب بن الخزرج، والحارث بن الخزرج.

وقد انقسمت هذه البطون الكبرى بدورها إلى بطون متعددة أصغر منها وإلى عشائر. وقد سكن الأوس المناطق الزراعية الغنية في المدينة، وجاوروا أهم قبائل اليهود وجموعهم، والخزرج استوطنوا مناطق أقل خصبًا، وقد جاورهم قبيلة يهودية كبيرة واحدة هي قينقاع،

وعشائر أخرى يهودية أقل عدداً هم اليهود الذين نزلوافي الشمال الغربي من المدينة عند المكان المعروف بيثرب شمال جبل سلع. وقد كان لهذا أثره الكبير في العلاقات بين العرب واليهود من ناحية وبين الأوس والخزرجمن ناحية أخرى(215).

وترجع المصادر العربية سبب قدوم الأوس والخزرج إلى يثرب إلى هجرة الأزد من اليمن نتيجة لتهدم سد مأرب؛ وكانت الأوس والخزرج ضمن هذه القبائل المهاجرة ، وتوجه الأوس والخزرج بعد هجرتهم إلى المدينة، وحين وردوها نزلوافي حرار، ثم تفرقوا وكان منهم من لجأ إلى عفاء من الأرض لا ساكن فيه، ومنهم من لجأ إلى قرية من قراها، فكانوا من أهلها، فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم التي نزلوها بالمدينة في جهد وضيق في المعاش ليسوا بأصحاب نخل وزرع، وليس للرجل منهم إلا الأعذاق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موات. والأموال لليهود، فلبثوا بذلك حيناً.

---

215) عن أنساب الأوس والخزرج وبطونهم. انظر : جمهرة أنساب العرب ، ص312- 347 ، وعن توزيع مساكنهم انظر: السمهودي ، 152- 165، وسيرة ابن هشام، 2/ 112، وابن سيد الناس، 1/ 194

قدم الأوس والخزرج علي اليهود في المدينة فوجدوهم قوم مستقرين في ديارهم، وبيدهم الأموال والآطام والعدد والقوة، فكان طبيعيّا أن يقنعوا منهم بالسماح لهم بمجاورتهم والإقامة معهم،

ولعلهم لم يكونوا من كثرة العدد والقوة بحيث يخشى اليهود عاديتهم. ومن الجائز أنهم فكروا في الاستفادة من خبرتهم السابقة في الزراعة في مواطنهم باليمن، فاتخذوا منهم عمالًا ومساعدين لهم في دوائرهم الزراعية أو في أعمالهم التجارية. وقنع الأوس والخزرج بهذا من اليهود فنزلوا بينهم وحواليهم؛ ولما كانت الثروة والسلطان في أيدي اليهود ومواليهممن البطون العربية، فقد عاش الأوس والخزرج في جهد وضيق في المعاش؛ إذ لم يكن لهم نعم ولا شاء؛ لأن المدينة ليست بلاد مرعى، فعمل بعضهم مأجوراً في مزارع اليهود، ومن عمل لحسابه لم يكن له إلا الأعذاق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موت. وقد قنع الأوس والخزرج بوضعهم في أول الأمر؛ لأنهم إنما كان همهم أن يستقروا ويجدوا لهم معاشًا. ثم أخذوا بعد ذلك يعملون على تثبيت مركزهم فسعوا إلى عقد الحلف بينهم وبين اليهود ليأمنوا على أنفسهم، وليستطيعوا توسعة دائرة أعمالهم، وقد أتاح لهم الحلف أن يشاركوا اليهود ويتعاملوا معهم، فازدادت ثروتهم وكثر عددهم وأخذوا في تنظيم أنفسهم.

وتنبهت اليهود إلى ما طرأعلى حلفائهم هؤلاء وأحسوا بخطورتهم وأدركوا أن الحلف إنما يسير إلى مصلحة جيرانهم، فخافوا أن يتطور الأمر إلى أن يغلبوهم على دورهم، فغيروا مسلكهم نحوهم وأساءوا معاملتهم وانتهوا إلى قطع الحلف معهم، عند ذلك ظهرت الفتن والعدوات بين الطرفين، ولما كانت اليهود أعد وأكثر فإن الأوس والخزرج أقاموا في منازلهم خائفين أن تجليهم يهود، ولم يكن أمامهم إلا أن يبحثوا لهم عن حليف ينصرهم إن ثارت الثائرة بينهم وبين اليهود. وكان طبيعيّا أن يتجه تفكيرهم أول ما يتجه إلى قوم تربطهم بهم رابطة قرابة ونسب، ويكونوا لهم من القوة ما يمكنهم من الانتصار بهم على خصومهم، فاتجهوا إلى الغساسنة الذين كانوا مثلهم فرعمن الأزد؛ فهم أبناء عمومة فضلَاً عن رابطة الخئولة، فقد كانت أم الأوس والخزرج قيلة من غسان كما يقرر النسابون، وكان الغساسنة قد علا أمرهم بالشام وكوّنوا لهم مملكة بها ، فرحل مالك بن العجلان إلى أبي جبيلة الغساني، وهو يومئذ ملك غسان، فسأله عن قومه وعن منزلتهم فأخبره بحالهم وضيق معاشهم، فقال له أبو جبيلة: والله ما نزل قوم منا بلدًا إلا غلبوا أهله عليه، فما بالكم؟! ثم أمره بالمضي إلى قومه، وقال له: أعلمهم أني سائر إليهم، فرجع مالك بن العجلان فأخبرهم بأمر أبي جبيلة. ثم جيش أبو جبيلة جيشًا عظيمًا وأقبل كأنه يريد اليمن حتى قدم المدينة

فنزل بذي حرض، وأرسل إلى أهل المدينة من الأوس والخزرج فأتوا إليه فوصلهم وأعطاهم. ثم أرسل إلى بني إسرائيل؛ يعني اليهود وقال: من أراد الحباء من الملك فليخرج إليه؛ وإنما فعل ذلك خيفة أن يتحصنوا في الحصون فلا يقدر عليهم، فخرج إليه أشراف بني إسرائيل بخواصهم وحشمهم، فأمر لهم بطعام، حتى اجتمعوا فقتلهم من عند آخرهم، وقال للأوس والخزرج: إن لم تغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلأحرقنكم. ثم رجع إلى الشام فلما فعل ذلك صار الأوس والخزرج أعز أهل المدينة فتفرقوا في عالية يثرب وسافلتها يتبوءون منها حيث شاءوا، واتخذوا الديار والأموال والآطام(216). ثم أخذت اليهود تعترض الأوس والخزرج وتناوشهم، فرأى مالك بن العجلان أن الغلبة لم تكمل لهم بعد على اليهود، فكادهم كيدًا شبيهًا بكيد أبي جبيلة، ونجح في القضاء على عدد منهم، فذلوا وقل امتناعهم وخافوا خوفًا شديدًا، واضطرت بطونهم الصغيرة إلى الدخول في حلف مع جيرانهم من الأوس والخزرج،

---

216) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ ، ص269-270

ولم يبق إلا بنو النضير وقريظة وكانوا أصحاب قوة وأن حصونهم كانت منيعة فاعتمدوا عليها ولم يحالفوا أحدًا منهم، وجعل اليهود كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض

كما كانوا يفعلون قبل ذلك، ولكن يذهب اليهودي إلى جيرانه الذين هو بين أظهرهم فيقول: إنما نحن جيرانكم ومواليكم فكان كل قوم من اليهود قد لجئوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم.

ولبث الأوس وال خزرج بعد تغلبهم على اليهود زمنًا وكلمتهم واحدة وأمرهم جميع، ثم وقعت بينهم حروب كثيرة، كان أولها حرب سمير ثم كانت لهم بعد ذلك حروب استمرت أكثر من مائة سنة ، وكان آخرها حرب بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات.

ولما كان من مصلحة اليهود ألا تظل كلمة العرب واحدة، فيستمروافي الضغط عليهم حتى يجلوهم نهائيّا عن منطقة يثرب، فإننا نرجح أنهم عملوامن جانبهم على الدس بينهم وتشجيع عوامل الفرقة وإذكاء روح التحاسدالتي بدأت تظهر بين الأوس والخزرج حتى يشغلوهم بأنفسهم عنهم، وقد أدرك العرب منهم ذلك فلقبوهم الثعالب؛ لما عرفوا فيهم من مكر وحيلة وخديعة،

وفضلوا جوار إخوانهم -على ما بينهم من تنازع- عن جوار هؤلاء الثعالب. ويؤيد ذلك رواية ذكرها ابن إسحاق فيقول : ومرشاس بن قيس، وكان شيخًا قد عشا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله ق من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم ...وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهممن العداوة في الجاهلية: فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد: لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار. فأمر فتًى شابّا من يهود كان معه، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار،... ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين.. (217).وهذه الرواية وإن ذكرها ابن إسحاق في حوادث ما بعد الهجرة، إلا أنها تعطينا فكرة عن الروح العامة لدى اليهود، وأنهم كانوا يرون في اجتماع كلمة الأوس والخزرج أمرَا مهددًا لكيانهم في المدينة فعملوا على تحطيم الاتحادبين القبيلتين العربيتين،

---

217) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 2/ 183- 184.

ونستطيع أن نقول: إن هذا الاتجاه هو الذي اتجه إليه اليهود بعد تغلب الأوس والخزرج عليهم في يثرب، وإن كانت الظروف قد اضطرتهم إلى أن تدخل بطونهم في أحلاف مع الأوس والخزرج كل بسبب ظروفه التي وجد فيها(218).

وقد بدأ التنازع بين الأوس والخزرج ، تنافسًا قبليّا على الرياسة وعلى احتلال مركز الصدارة في يثرب، ولما كان تفوق العرب وانتصارهم على اليهود قد جاء على يد رجل من الخزرج أصبح له الذكر والشرف عليهم، كان طبيعيّا أن يعمل الخزرج على الاحتفاظ بمركز الصدارة في المدينة، لكن حدث أن الأوس تملكوا أفضل البقاع الزراعية، وأصبح الوضع الاقتصادي في مصلحتهم لذلك لم يقبلوا أن تكون للخزرج هذه المنزلة عليهم، وساءهم أن يؤكد أحد الوافدين من رجال القبائل البدوية حول يثرب هذه المنزلة لزعيم الخزرج مالك بن العجلان وأن يفاخر بذلك حليف لمالك على محفل من أهل المدينة، فترصده رجل من الأوس وقتله. وطالب مالك به، فعرضت عليه الدية بحسب الأصول القبلية المعروفة - وهي دية الحليف نصف دية الصريح- لكن مالكًا رأى أن يؤكد سيادته فأصرعلى ألا يقبل في حليفه إلا دية الصريح،

218) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، ص274

ورفضت الأوس ذلك بطبيعة الحال، فاقتتل الفريقان، ثم تحاكموا فقضي لمالك بدية الصريح إرضاء له على أن يعود الأمر بعد ذلك إلى السنن المعروفة.

لكن هذا الحل كان أمراَ مو قوتًا، إذ إن دواعي الخلاف الحقيقة بقيت خفية في النفوس لم يجرؤ أحد على إظهارها، وزاد الأمر تعقيدًا وقوع الدماء بين الطرفين، فشبت البغضاء في نفوسهم وتمكنت العداوة بينهم، فتتالت الوقائع بين الفريقين في مظهر من مظاهر التنافس القبلي، كان النصر في أكثرها للخزرج على الأوس، حتى أحست الأوس بالضعف وبعدم قدرتها على الصمود بنفسها أمام الخزرج الذين بدا واضحًا أن نياتهم تتجه إلى الحصول على ما في أيديهم من الأرض الخصبة. ولما كانت الأوس تجاور قبيلتين قويتين من قبائل اليهود وهما قريظة والنضير اللتان استطاعتا الاحتفاظ بما في أيديهما من أفضل الأراضي الخصيبة وكانتا من القوة بحيث لم تدخلا في حلف مع إحدى القبيلتين العربيتين؛ فإنها فكرت في إقناع هؤلاء اليهود بالدخول معها في حلف للوقوف في وجه أطماع الخزرج التي تهدد الطرفين على السواء. وحين أحست الخزرج بهذا الاتجاه الأوسي، أنذرت اليهود بالحرب إن هم انحازوا إلى جانب الأوس، ويبدو أن الخزرج كانت قد وصلت إلى درجة من القوة حتى أخافت اليهود، فخضعوا لهذا التهديد وقدموا رهنًا من أبنائهم ضمانًا لوفائهم بالتزام جانب الحياد، وحتى إن بطونًا من الأوس نفسها حالفت الخزرج ضمانًا لمصالحها.

وبذلت البطون الأوسية الغنية محاولات للصمود في وجه الخزرجلكنها باءت بالهزيمة، وحين عجزت عن الصمود وأيست من نصرة اليهود واتجهت إلى عنصر خارجي، فأرسلت وفدًا إلى مكة لاستعداء قريش على الخزرج . لكن قريشًا كانت دائمًا تبتعد عن كل ما من شأنه أن يورطها أو يجرها إلى حروب قد تضر بمصالحها التجارية، فرفضت هذا الحلف الذي يشتم منه رائحة الدماء. واضطرت الأوس أمام هذا الفشل إلى الخضوع، كما اضطرت بعض بطونهاإلى الخروج عن مساكنها أمام ضغط الخزرج.

غير أن الوضع ما لبث أن تغير فقد أسفر الخزرج عن نياتهم في الحصول على ما في أيدي قريظة والنضير من الأراضي والدور، وفعلًا أذنوهم بالحرب أو أن يسلموا ما بأيديهم. ولم يكن هذا العمل من زعماء الخزرج -في هذا الوقت- ينطوي على شيء من الحكمة فإن هذا الموقف وحد بين الأوس واليهود من قريظة والنضير، إذ وجد هؤلاء أن عليهم إن أرادوا البقاء في يثرب أن يخوضوا ضد الخزرج معركة فاصلة، ولم يكن الخزرج بأقل منهم رغبة في خوض هذه المعركة لتأكيد سيادتهم ولتغيير لوضع الاقتصادي تغييراً نهائيّا، ولما كانت المعركة معركة حياةأو موت فقد حشد لها الطرفان كل إمكانياتهما واستجلبا حلفاءهما من قبائل البادية.

ولما كانت المعركة بالنسبة للأوس وحلفائهم هي معركة الحياة فقد استماتوا في القتال وألحقوا بخصومهم هزيمة كبيرة، ولم ينقذ الخزرج من الكارثةإلا خشية الأوس من أن يستعيد اليهود مركزهم السابق في يثرب،

فيضطر الأوس لمواجهتهم على انفراد لو قضي على قوة الخزرج، وفعلًا بدت نيات اليهود واضحة في تحطيم الخزرج وإذلالهم؛ ولذلك فضلت الأوس الاكتفاء بالقضاء على روح التسلط في الخزرج دون القضاء عليهم، ورأت أن جوارهم خير من جوار الثعالب.

وقد استغل أحد زعماء الخزرج -وهو عبد الله بن أبي- موقفه الحيادي الشخصي ولصالح قبيلته، فاستطاع أن يحمي أمواله من الاعتداء عليهاوأن يكسب لنفسه مركزًا أدبيّا في هذا الجو المضطرب بين طوائف المدينة المختلفة فاتجهت إليه أنظار الطرفين على السواء كرجل يمكن أن يكون واسطة التجميع وحل النزاع. كما أنه استطاع أن يضم إلى جانب قبيلته إحدى قبيلتي اليهود القويتين وهم بنو النضير، وبذلك حدث توازن بين المعسكرين المتخاصمين(219). وهكذا أصبحت مدينة يثرب تغلي بالخلافات وتضارب المصالح والأهواء. لكن يوم بعاث أصاب الفريقين بأضرار كبيرة؛

219) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ ، ص279-280

فقد قتل عدد كبير من سروات القوم جميعًا ورؤسائهم، وأصيبت الممتلكات بأضرار فادحة نتيجة التقطيع والتحريق. الأمر الذي جعل الناس يفكرون في ضرورة وضع حد لهذه المنازعات..

فبدأت الأفكار تتجه إلى إيجاد جو من السلام ينصرف الناس فيه لأعمالهم ويتذوقون لذة الراحة وهناء العيش، وبخاصة البطون الصغيرة التي لم تكن لها مصالح في النزاع وكان همها أن تعيش في سلام؛ لذلك سعى كثير من الزعماء وذوي النفوذ من الطرفين لكف كل من تحدثه نفسه بمحاولة إثارة الفتنة وإيقاد نار العداوة.

وعلى العموم فإن بعاث قد أضعف بطون يثرب كلها وأوجد فيها ميلًا إلى الاتحاد، حتى إنه ليقال إنها أرادت أن تملك عليها ملكًا من الخزرج، كما يحدثنا ابن إسحاق: وقدم رسول الله ص المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبيبن سلول العوفي لا يختلف عليه في شرقه من قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين

فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله ق وهم على ذلك. فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ص قد استلبه ملكًا، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهًا مصرّا على نفاق وضغن (220). فكأن قلوب أهل يثرب على اختلاف قبائلها وكثرة نزعاتها سئمت حالة الجفاء والعداوة، وأحست بالحاجة إلى من يخرجهم منها ويوجه نشاطهم إلى ما هو أجدى عليهم وأكثر نفعًا(221).

ثانيا : كيد اليهود :

أما العنصر الثاني من عناصر الضعف فهو وجود اليهود في المدينة. وقد كانوا عنصرَا كبيراَ وقوة خطيرة لا يستهان بها، كانوا قد هاجروا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الأشوري والروماني وكانوا في الحقيقة عبرانيين، ولكن بعد الانسحاب إلى الحجاز اصطبغوا بالصبغة العربية في الزى واللغة والحضارة، حتى صارت أسماؤهم وأسماء قبائلهم عربية،

---

220) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1/ 216.

221) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ ، ص284

وحتى قامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصهر، إلا أنهم احتفظوا بعصبيتهم الجنسية، ولم يندمجوا في العرب قطعًابل كانوا يفتخرون بجنسيتهم اليهودية وكانوا يحتقرون العرب احتقارًابالغًا وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم، يأكلونها كيف شاءواقال تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [سورة آل عمران: الآية 75]

ولم يكونوا متحمسين في نشر دينهم، وإنما جل بضاعتهم الدينية هي : الفأل والسحر والنفث والرقية وأمثالها، وبذلك كانوا يرون أنفسهم أصحاب علم وفضل وقيادة روحانية . وكانوا مَهَرَةً في فنون الكسب والمعيشة، فكانت في أيديهم تجارة الحبوب والتمر والخمر والثياب، كانوا يستوردون الثياب والحبوب والخمر، ويصدرون التمر، وكانت لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، فكانوا يأخذون المنافع من عامة العرب أضعافًا مضاعفة، ثم لم يكونوا يقتصرون على ذلك، بل كانوا أكالين للربا، يعطون القروض الطائلة لشيوخ العرب وسادتهم؛ ليكسبوا بها مدائح الشعراء والسمعة الحسنة بين الناس بعد إنفاقها من غير جدوى ولا طائلة، وكانوا يرتهنون لها أرض هؤلاء الرؤساء وزروعهم وحوائطهم، ثم لا يلبثون إلا أعوامًا حتى يتملكونها .

وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد؛ يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة، ويغرون بعضها على بعض بكيد خفي لم تكن تشعره تلك القبائل، فكانت تتطاحن في حروب، ولم تكد تنطفئ نيرانها حتى تتحرك أنامل اليهود مرة أخرى لتؤججها من جديد . فإذا تم لهم ذلك جلسوا على حياد يرون نتائج هذا التحريض والإغراء، ويستلذون بما يحل بهؤلاء المساكين ـ العرب ـ من التعاسة والبوار، ويزودونهم بقروض ثقيلة ربوية حتى لا يحجموا عن الحرب لعسر النفقة . وبهذا التدبير كانوا يحصلون على فائدتين كبيرتين : هما الاحتفاظ على كيانهم اليهودي، وإنفاق سوق الربا؛ ليأكلوه أضعافًا مضاعفة، ويكسبوا ثروات طائلة .

وكانت في يثرب منهم ثلاث قبائل مشهورة :

بنو قَيْنُقَاع : وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم داخل المدينة .

بنو النَّضِير : وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم بضواحي المدينة .

بنو قُرَيْظَة : وكانوا حلفاء الأوس، وكانت ديارهم بضواحي المدينة .

وهذه القبائل هي التي كانت تثير الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد وقد ساهمت بأنفسها في حرب بُعَاث، كل مع حلفائها (222) .

---

222) الرحيق المختوم ، ص179

وقد أجبرتهم الظروف على تقبل الوضع الجديد الذي نشأ بالهجرة، فحاولوا في أول الأمر التقرب إلى هذا الوافد الجديد لعلهم يستطيعون استمالته إلى جانبهم؛ فربما استطاعوا بمعاونته أن يحولوا الموقف الداخلي في يثرب لصالحهم، وقابل الرسول ق تقربهم هذا بتقرب مماثل، فاعترف بهم عنصراَ في الدولة الجديدة، وأقرهم على وضعهم وديانتهم، ووضع بنودًا في دستور المدينة -الصحيفة- حددت وضعهم كعنصر عامل مشارك في الحقوق والواجبات، وعقد مع قبائلهم الكبرى عقودًا ألحقتها بالدولة؛ لكن موقف اليهود في أنفسهم كان تربصًا وانتظارًا لما يتبلور عنه الوضع الجديد. فما لبثوا أن رأوا الأمور تسير إلى وجهة غير التي قدروها رأوا النبي يدعو إلى التوحيد ولكن ليس هو التوحيد الذي يؤمن به اليهود، فلقد اتخذ اليهود من رسالة التوحيد التي جاء بها موسى دينًا، ولكنهم ربطوها بجنسهم، فالله الواحد هو إله إسرائيل الذي اختارهم لنفسه من دون الناس واختاروه لأنفسهممن دون الآلهة، وبذلك كانوا يرون لأنفسهم ميزة على الناس. وكانوا حين تلم بهم شدة أو يحيط بهم الضعف والذل ينتظرون مجيء رسول أو مسيح ينقذهم من البؤس والشقاء، وقد تحولت عندهم هذه الأمنية إلى عقيدة راسخة، ولقد نزل القرآن الكريم يندد باليهود ويذكر تناقضهم في أنفسهم

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ [سورة المائدة: الآية 70]

فكأن غاية اليهود من أمنيتهم أن يجدوا من يأتي بما يهوون من سيطرة ونفوذ، لا بما تتطلبه الدعوة من إصلاح وخير يعم الناس جميعًا، ومن أجل ذلك كذبوا أنبياءهم، وعارضوا المسيح وحاربوا دعوته وسعوا إلى قتله؛ فإذا جاء محمد فدعا إلى هذا الإله الواحد الناسَ جميعًا بغض النظر عن أجناسهم، فإنه بذلك يزيل عن بني إسرائيل هذه الميزة التي يستفتحون بها على الآخرين. وإذن فلا تهادن بينهم وبين محمد الذي يسعى إلى تحطيم تلك القواعد المقررة التي سار عليها يهود، فقامت بينهم وبين النبي ص محاجات ومجادلات ما لبثت أن اتخذت من جانبهم موقف التحدي والمعاندة بل لم تلبث أن ورطتهم فيما لا يصح أن يتورط فيه ناس لهم دين سماوي وعندهم كتاب؛ فلقد كفروا بكل مبادئ التوحيد نكاية في محمد، فأعلنوا لقريش حين سألتهم أدينها خير أم ما يدعو إليه هذا الرجل؟ أن دينهم خير وأن الحقفي جانبهم، وفي تورطهم في هذا الإثم الذي دفع إليه الحقد الأعمى بتفضيلهم الأصنام على التوحيد، نزل القرآن يعيرهم ويندد بهم : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (51) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (52) [سورة النساء: الآية 52،51].

وأمر آخر أثار حقد اليهود، وذلك هو أن محمدًا استطاع أن يؤلف بين الأوس والخزرج، وأن يجعل منهم كتلة قوية متماسكة تضاءل إلى جانبها وضع اليهود ثم هو في كل يوم يدخل إلى المدينة من المهاجرين ممن جاءوا معه من مكةومن يلحق بهم، ومن يدخل في الإسلام من الأعراب ويهاجر ليقيم بالمدينة ما يزيد العرب بها قوة ويزيد اليهود بها ضعفًا، ويقضي على كل حلم يراود نفوسهم في استعادة مركزهم أو حتى الاحتفاظ بهذا المركز.

ثم إن المهاجرين المكيين ما لبثوا أن اقتحموا الميدان الاقتصادي والتجاري منه بنوع خاص، ولهم من الخبرة بشئون التجارة ما تضاءلت معها خبرة اليهود وليس أبرع من تاجر قرشي في ذلك الوقت، فما لبثوا أن نظموا سوق المدينة وأجروا فيها التعامل على أسس جديدة جاء بها الإسلام، فلا ربًا ولا إرهاقًا ولا طرقًا ملتوية تذهب بأموال الناس، وبذلك نجحوا نجاحًا كبيرًا وجنوا أرباحًا لا بأس بها وسيطروا -أو كادوا- على سوق المدينة. والمال وجمعه عنصر حساس عند اليهود يبيحون لأنفسهم في سبيله ما لا يباح من دين أو شرف؛ لذلك ما لبثوا أن تنكروا لعهودهم واخلفوا مواثيقهم، وسعوا إلى تحطيم هذا الوضع الجديد في الداخل والخارج. فأما في الداخل فقد عملوا على إثارة الفتن والأحقاد القديمة بين الأوس والخزرج.

ثم قاموا يجادلون ويشككون في الدين الجديد، ويصدون عنه من يريد الدخول فيه. بل تطرقوا إلى المساس بالأشخاص والأغراض فأخذوا ينشرون قالة السوء وانبري شعراؤهم ينظمون الشعر في هجاء محمد والمسلمين والتحريض على حربهم ويشببون بنساء الأنصار، بل ائتمروا بالنبي ص نفسه يريدون قتله. وأما في الخارج فقد اتصلوا بأعداء الدولة وكانوا عيونًا لهم على المسلمين ثم تآمروا مع العدو وخانوا الدولة، وأوشكت مؤامراتهم وخ يانتهم أن تقضي على المدينة قضاء تامّا في غزوة الأحزاب .

ولقد عالج النبي ص موقف اليهود في براعة وقدرة، وتغلب على حساسية الموقف التي كانت قائمة بمحالفة اليهود مع بعض بطون الأوس والخزرج، وكانت هذه المحالفات لا يزال لها أثر في هذه البطون؛ فكان لا بد أن يعمل الحبيب محمد ق حساباً لشعورها، فترى الحبيب محمد ق يصانع اليهود مرة، ويجادلهم أخرى، ويصبر عليهم حتى تحين فرصة فيقلم أظفارهم، ثم يرى نفسه مضطرّا آخر الأمر إلى التخلص منهم نهائيّا(223).

---

223) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ ، ص233-236

ثالثا : نفاق المنافقين (224) :

أما العنصر الثالث من عناصر الضعف فقد كان ممثلًا في طائفة من عرب المدينة من الأوس والخزرج، ومن بعض المتهودة، ومن رجال بعض البطون اليهودية الصغيرة دخلوا في الإسلام ظاهريّا، فعرفوا بالمنافقين.

وكان رأس هذه الطائفة رجل من زعماء الخزرج هو عبد الله بن أبي بن سلول من بني الحبلى. وقد رأى هذا الرجل أن هجرة الرسول ق قد فوتت عليه مصلحة عاجلة كادت تصل إليه؛ ذلك أن الأوس والخزرج قد تصالحوا بعد يوم بعاث واتفقوا على أن يملكوا عليهم رجلًا منهم، وكان عبد الله هذا هو الزعيمالذي وقع عليه الاختيار، فإنه كان قد لزم الحياد في مراحل الصراع الأخير بين القبيلتين، وفعلًا استعد قومه لتوليته مقاليد الرياسة؛ فلما كانت الهجرة تغير الوضع وفات عبد الله ما كان يريد وينتظر، من أجل هذا ضغن على النبي ص وعلى الوضع الجديد كله، والتف حوله طائفة ممن شايعه، كما التف حوله اليهود لاتفاق مصلحة الطرفين. وقد عملت طائفة المنافقين على خلق المتاعب في المدينة، غير أن خصومة هؤلاء المنافقين تختلف عن خصومة اليهود

224) نافق الرجل إذا أظهر الإسلام لأهله وأضمر غير الإسلام وأقام مع أهله. ومحل النفاق القلب. القاموس مادة: ن ف ق.

وإن اتحدت مصلحة الطرفين في مناوأة الحبيب محمد ق فالمنافقون من عرب يثرب يرتبطون بعشائرهم برابطة الدم والقرابة،

وليس من السهل التخلص منهم بإخراجهم من يثرب كما فعل الحبيب محمد ق باليهود، كما أنه من الصعب التخلص منهم بالقتل وإلا تعرضت المدينة لحرب العصبية، وتعرض الحبيب محمد ق لأن يقال: إنه يقتل أصحابه وفي هذا إضعاف لمركز الدعوة الإسلامية بين القبائل، لو شن العدو دعاية من هذا النوع، فقد كان المنافقون يظهرون الإسلام، فهم في الظاهر مسلمون ومن أصحاب محمد، وقد استشعر الحبيب محمد ق هذا الحرج حين أشار عليه عمر بن الخطاب بقتل عبد الله بن أُبَي بعد أن سعى بالفتنة بين المهاجرين والأنصار في غزوة بني المصطلق، وقال النبي ص لعمر: " فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه"(225)، وقد استعان النبي ص على هذه الطائفة بعشائرها التي كانت تدرك موقف هؤلاء المنافقين وتقدر حلم الحبيب محمد ق بهم رعاية لخاطر عشائرهم، وقد جعلت هذه العشائر من نفسها وازعًا يرد فتن هؤلاء المنافقين ويكبح جماحهم. وقد نجحت سياسة الحبيب محمد ص هذه إلى حد كبير،

225) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 3/ 235.

وخير شاهد على ذلك ما أورده ابن إسحاق من استعداد عبد الله بن عبد الله بن أبي لقتل والده لو أمره الحبيب محمد ص بذلك، وأن قومه كانوا هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، وحين تذاكر الحبيب محمد ق وعمر موقف عبد الله بن أبي وتعنيف قومه له قال: "كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرعدت له آنف(226) لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ، قال عمر : قد والله علمتُ، لأمْر رسول الله ص أعظم بركة من أمري (227).

وموقف المنافقين كان شديد الخطورة على كيان الأمة الداخلي؛ لكنهلم يصل إلى الحد الذي وصل إليه موقف اليهود، فقد كان المنافقون حقًّا يخذلون الدولة في المواقف الحرجة، ولا يتعاونون تعاونًا صادقًا عند الخطر. كما حدثمن عبد الله بن أبي حين خذل جيش المدينة ورجع بالمنافقين من غزوة أحد(228) وكما تخاذل المنافقون في غزوة الأحزاب(229). لكن هذه المواقف لم تكن في خطورة الاتصال بالعدو وتمهيد الطريق له لدخول المدينة والقضاء على أهلها كما فعل اليهود؛ فقد كان المنافقون يعتبرون أنفسهم أهل البلد، وهم إن لم يدافعوا عنها حمية للدين قاتلوا من أجل أحسابهم وأعراضهم،

---

226) لأرعدت له آنف: أي انتفخت واضطربت أنوفهم حمية وعصبية.

227) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 3/ 235.

228) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 3/ 8.

229) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 3/ 231،279.

ولذلك كان النبي ص يستشيرهم حين يدهم المدينة داهم، فقد استشار عبد الله بن أبي في غزوة أحد، وقد أشارعبد الله برأي صحيح، إذ إن الموقف كان يمس وطنه(230)، كما قاتل بعض المنافقين قتالًا رائعًا في هذه الغزوة، وخير مثل لهم في هذا الموقف رجل يسمى: قزمان، أبلى بلاءَ شديدًا وقتل وأشرف على الموت وجعل بعض المسلمين يبشره بالجنة قال: بماذا أبشر؟ فوالله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت(231).

وقد ظل خطر المنافقين على الدولة كبيراَ ما ظل اليهود في يثرب؛ إذ إنهم كانوا على صلة دائمة بهم، بل إن اليهود هم الذين أَزْكَوا النفاق في يثرب فلما تم تطهير يثرب من اليهود ضعف أمر النفاق، وأصبح الحبيب محمد قلا يخشى خطر هذه الطائفة.

هذه هي المتاعب التي واجهت النبي ص في جبهته الداخلية، وقد تغلب عليها بمنتهى اليقظة والحزم، وزاوج في التغلب عليها - بين اللين والشدة- حتى استقام له الأمر(232).

---

230) مغازي الواقدي، ص 164، 165

231) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 3/ 37 -38

232) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، ص338 - 339

بناء الدولة الإسلامية

منذ أول يوم استقر فيه الحبيب محمد ق في المدينة بدأ يؤسس الدولة الإسلامية الكبرى التي أذن الله لها -فيما بعد- أن تمتد في كل اتجاه وتضم بين ذراعيها أقوى دولتين كانتا تتحكمان في هذا العالم، وهما: دولة الفرس ودولة الروم.

وإذا كان كثير من المؤرخين قد درجوا على أن يجعلوا الأسس التي أقيمت عليها الدولة الإسلامية حينئذ ثلاثة فحسب، وهي: بناء المسجد، والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، والمعاهدة بين الرسول وبين اليهود،فإن مرجعهم في ذلك الأسس التي فعلها ق ساعة دخوله المدينة ،ولدى التأمل نستطيع أن نضيف إليها أسسا أخرى لها أهميتها الكبرى وهي: إلغاء العصبية القبلية بين الأوس والخزرج، حيث حول الإسلام قوتها المدمرة إلى قوة نافعة معمرة، وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، إذ ترتب على هذا التحول ترغيب كثير من القبائل العربية في الإسلام الذي يقدس بيت الله الحرام، وتوجيه المسلمين إلى القتال في سبيل الله حتى يتطهر الجو الذي كان يحيط بهم من عوامل الشر والفساد ويفتح المجال أمام الراغبين في الإسلام دون خوف من اضطهاد أو فتنة ، ووضع النظام الاقتصادي الذي سوف تقوم عليه الدولة الجديدة وهذه الأسس وإن كانت متأخرة زمنيا إلا أنها كانت لها دور حاسم في تأسيس الدولة الإسلامية .

بناء المسجد النبوي :

كان أول خطوة خطاها الحبيب محمد ق بعد الهجرة هو بناء المسجد النبوي، وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام ، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين وتنقي القلب من أدران الأرض ، وأدناس الحياة الدنيا(233).

روى البخاري بسنده أن رسول الله ص دخل المدينة راكباً راحلته ، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ص بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربدا(234) للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله ص حين بركت به راحلته: "هذا إن شاء الله المنزل" ثم دعا رسول الله ص الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً فقال: لا بل نهبه لك يا رسول الله فأبى رسول الله ص أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما(235).

وقيل : أنه كانت في ذلك المكان قبور للمشركين، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غَرْقَد، فأمر رسول الله ص بقبور المشركين فنبشت، وبالخَرِب فسويت، وبالنخل والشجرة فقطعت، وصفت في قبلة المسجد، وكانت القبلة إلى بيت المقدس، وجعلت عضادتاه من حجارة، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين

---

233) الغزالي، فقه السيرة ، ص191

234) مربد: الموضع الذي نجفف فيه التمر.

235) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب هجرة النبي وأصحابه (78/5).

وجعل سقفه من جريد النخل، وعُمُده الجذوع، وفرشت أرضه بالرمال والحصباء وجعلت له ثلاثة أبواب، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، والجانبان مثل ذلك أو دونه، وكان أساسه قريباَ من ثلاثة أذرع .

وأسهم الحبيب محمد ص في بنائه بنفسه، فكان ينقل اللبِن والحجارة ويقول :

اللهم لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة فاغْفِرْ للأنصار والمُهَاجِرَة

وكان يقول :

هذا الحِمَالُ لا حِمَال خَيْبَر هذا أَبَرّ رَبّنَا وأطْهَر

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة في العمل، حتى إن أحدهم ليقول :

لئن قَعَدْنا والنبي يَعْمَل لذاك مِنَّا العَمَلُ المُضَلَّل (236)

---

236) مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب مسجد النبي رقم 1524 (374/1،737)، وأنظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، 496/1

لقد كان الحبيب محمد ص يحمل الحجارة وينقل اللبن على صدره وكتفيه، ويحفر الأرض بيديه كأي واحد منهم، فكان مثال الحاكم العادل الذي لا يفرّق بين رئيس ومرؤوس أو بين قائد ومقود، أو بين سيد ومسود، أو بين غني وفقير، فالكل سواسية أمام الله، لا فرق بين مسلم وآخر إلا بالتقوى، ذلك هو الإسلام عدالة ومساواة في كل شيء، والفضل فيه يكون لصاحب العطاء في العمل الجماعي للمصلحة العامة، وبهذا الفضل ثواب من الله، والحبيب محمد ق كغيره من المسلمين، لا يطلب إلا ثواب الله، فقد كانت مشاركة النبي ص في عملية البناء ككل العمال الذين شاركوا فيه، وليس بقطع الشريط الحريري فقط، وليس بالضربة الأولى بالفأس فقط، بل غاص بعملية البناء كاملة، فقد دهش المسلمون من الحبيب محمد ق ، وقد علته غَبرة، فتقدم أسيد بن حضير ت ليحمل عن رسول الله ص ، فقال: يا رسول الله أعطينه؟ فقال: (اذهب فاحتمل غيره فإنك لست بأفقر من الله مني) (237) ، فقد سمع المسلمون ما يقول النبي ص لصاحبه، فازدادوا نشاطاً واندفاعاً في العمل(238).

237) أخرجه أحمد في المسند 2 / 381، محمد بن يوسف ألصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، 337/3

238) د. علي معطي ، التاريخ الإسـلامي والعسـكري، ص158، أمين دويدار، صـور من حياة الرسول، ص261.

والحقيقة أن المسجد النبوي الذي بدأ بتأسيسه وبنائه الحبيب محمد ق أول ما بدأ من عمل في مستقره ودار هجرته في مطلع مقدمه ليكون نموذجاً يحتذي به في بساطة المظهر، وعمق المخبر، ليحقق به أعظم الأهداف وأعمها بأقل النفقات وأيسر المشقات.

وإقامة المساجد من أهم الركائز في بناء المجتمع الإسلامي، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه وإنما ينبع ذلك من روح المسجد ووحيه كما أنه أنشئ ليكون متعبداً لصلاة المؤمنين وذكرهم الله تعالى وتسبيحهم له، وتقديسهم إياه بحمده وشكره على نعمه عليهم يدخله كل مسلم ويقيم فيه صلاته وعباداته، ولا يضّاره أحد، مادام حافظاً لقداسته ومؤدياً حق حرمته. وأنشئ ليكون ملتقى الحبيب محمد ق بأصحابه والوافدين عليه، طلباً للهداية ورغبة في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته.

ولم يكن المسجد موضعًا لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى تلتقي وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشئون وبث الانطلاقات، وبرلمان لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية .

وكان مع هذا كله داراً يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون .

و قد أنشئ ليجد فيه الغريب مأوى، وابن السبيل مستقراً لا تكدره منّة أحد عليه، فينهل من رفده ويعب من هدايته ما أطاق استعداده النفسي والعقليلا يصده أحد عن علم أو معرفة أو لون من ألوان الهداية، فكم من قائد تخرج فيه وبرزت بطولته بين جدرانه، وكم من عالم استبحر علمه في رحابه، ثم خرج به على الناس يروي ظمأهم للمعرفة؟ وكم من داع إلى الله تلقّى في ساحاته دروس الدعوة إلى الله فكان أسوة الدعاة، وقدوة الهداة، وريحانة جذب القلوب شذاها فانجفلت تأخذ عنها الهداية لتستضئ بأنوارها؟.

وقد بني بجانب المسجد حجرتان: إحداهما لسودة بنت زمعة، والأخرى لعائشة بنت أبي بكر. ولم يكن الحبيب محمد ق متزوجا غيرهما إذ ذاك، وكانت الحجرتان متجاورتين وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه، ثم صارت تُبنى الحجرات كلما تزوج الرسول ق على عدد زوجاته، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب (239).

وفي أوائل الهجرة شرع الأذان، تلك النغمة العلوية التي تدوي في الآفاق، وتهز أرجاء الوجود، تعلن كل يوم خمس مرات بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وتنفي كل كبرياء في الكون وكل دين في الوجود، إلا كبرياء الله، والدين الذي جاء به عبده محمد رسول الله . وقد تشرف برؤيته في المنام أحد الصحابة الأخيار عبد الله بن زيد بن عبد ربه ت

239) أبو شهبة ، السيرة النبوية ، 36/2

فأقره النبي ص وقد وافقت رؤياه رؤيا عمر بن الخطاب ت فأقره النبي ص.

قال ابن إسحاق : فلما اطمأن رسول الله ص بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام فقامت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام وقامت الحدود وفرض الحلال والحرام وتبوأ الإسلامبين أظهرهم وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والإيمان . وقد كان رسول الله ص حين قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها ، بغير دعوة فهم رسول الله ص حين قدمها أن يجعل بوقا كبوق يهود الذين يدعون به لصلاتهم ثم كرهه ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة ، فبينما هم على ذلك إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه أخو بلحارث بن الخزرج النداء فأتى رسول الله ص فقال له يا رسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائف مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا في يده فقلت له يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ قال وما تصنع به ؟ قال قلت : ندعو به إلى الصلاة ، قال أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قال قلت : وما هو ؟ قال تقول الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .

أخبر بها رسول الله ص قال إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتا منك . فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب ، وهو في بيته فخرج إلى رسول الله ص وهو يجر رداءه وهو يقول يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى ، فقال رسول الله ص " فلله الحمد على ذلك " (240). وكان بلال بن رباح أحد مؤذنيه ق بالمدينة والآخر عبد الله بن أم مكتوم، وكان بلال يقول في أذان الصبح بعد حيّ على الفلاح الصلاة خير من النوم مرتين وأقرّه الرسول ق على ذلك وكان يؤذن في البداءة من مكان مرتفع ثم استحدث المنارة (المئذنة) (241). وبعد تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بأمر الله تعالى وذلك بعد ستة عشر شهراً من هجرته ق إلى المدينة، بقي حائط القبلة الأولى في مؤخر المسجد النبوي ، فأمر النبي ص به فظلل أو سقف وأطلق عليه اسم الصفة أو الظلة ، ولم يكن له ما يستر جوانبها(242). قال ابن حجر : الصفة مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل(243).

---

240) الروض الأنف ، 354/2

241) د.فايد حماد عاشور، سليمان ابو عزب، تاريخ دولة الإسلام الأولى، ص108.

242) السمهودي ، وفاء الوفاء ، 321/1

243) فتح الباري ، 595/6، 535/1.

قال أبو هريرة: (وأهل الصفة أضياف الإسلام ، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد) (244).

وأهل الصفة هم فقراء المهاجرين وكانوا نحو أربعمائة لم يكن لهم مساكن ولا عشائر بالمدينة فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنون ويتعلمون القرآن ويصومون ويخرجون في كل غزوة . وكان رسول الله يدعوهم بالليل إذا تعشى فيفرقهم على أصحابه وتتعشى طائفة منهم مع رسول الله ص حتى جاء الله بالغنى.

والحقيقة أن المهاجرين الأوائل الذين هاجروا قبل الحبيب محمد ق أو معه أو بعده حتى نهاية الفترة الأولى قبل غزوة بدر ، استطاع الأنصار أن يستضيفوهم في بيوتهم وأن يشاركوهم النفقة ، ولكن فيما بعد كبر حجم المهاجرين مما لم يعد هناك قدرة للأنصار على استيعابهم. فكان من لم يتيسر له مكان يأوي إليه يأوي إلى تلك الصفة في المسجد(245).

---

244) البخاري رقم 6452.

245) الفتاوى ، 11/40-41

كان عدد أهل الصفة يختلف باختلاف الأوقات، فهم يزيدون إذا قدمت الوفود إلى المدينة ويقولون إذا قل الطارقون من الغرباء، على أن عدد المقيمين منهم في الظروف العادية كان في حدود السبعين رجلاً ، وقد يزيد عددهم كثيراً حتأن سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم فضلاً عن الآخرين الذين يتوزعهم الصحابة(246).

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان موقف الحبيب محمد ق وأصحابه المهاجرين - بعد أن تركوا وطنهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم - موقفا دقيقا يتطلب الإخلاص والتضامن ويقتضي أن يسود التعاون بينهم وبين إخوانهم الأنصار.

وكان الأنصار - وهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم- يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة(247).

---

246) أبو نعيم الحلية ، 339،341/1

247) أي حاجة وفقر كما جاء القرآن بذلك.

لا غرو فقد شعروا بحاجة إخوانهم المهاجرين، وقدروا ظروفهم العصيبة فأوَوْهُم ونصروهم، وضربوا في الإخلاص لهم والتفاني في خدمتهم أروع الأمثالحتى لقد وصفهم الله -عز وجل- بذلك الوصف الرائع حيث يقول

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ سورة الحشر: الآية 9].

أي يفضلون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، مهما كان فقرهم، ومهما اشتدت حاجتهم.

وكانت الحبيب محمد ص في هذه الظروف القاسية سياسة القائد المحنك الرشيد، فقد عمل على تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم، فربط بينهم برباط قوي متين، وذلك أنه عقد تلك الأخوة النادرة المثال بين الأنصار والمهاجرين وجعل لها من الحقوق والواجبات ما لأخوة النسب(248).

248) فكان الواحد يرث أخاه إذا مات حتى نزل قول الله تعالى:

رضي الله عنها ...وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ رضي الله عنهم [سورة الأنفال: الآية 75] .

قال ابن القيم : ثم أخي رسول الله ص بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلًا، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، أخي بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل : وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [سورة الأنفال: الآية 75].
 رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة(249) .

قال ابن إسحاق : وآخى رسول الله ص بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال: تآخوا في الله أخوين ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب ، فقال هذا أخي فكان رسول الله ص ....وعلي بن أبي طالب ت أخوين وكان حمزةبن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله ق وعم رسول الله ص وزيد بن حارثة مولى رسول الله ص أخوين وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتالإن حدث به حادث الموت وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطيار في الجنة ومعاذ بن جبل ، أخو بني سلمة ، أخوين . قال ابن هشام : وكان جعفر بن أبي طالب يومئذ غائبا بأرض الحبشة .

---

249) زاد المعاد ، 56/2

قال ابن إسحاق : وكان أبو بكر الصديق ت ابن أبي قحافة وخارجة بن زهير ، أخو بلحارث بن الخزرج أخوين وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وعتبان بن مالك ، أخو بني سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج أخوين وأبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح ، ... وسعد بن معاذ بن النعمان أخو بني عبد الأشهلأخوين . وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الربيع ، أخو بلحارث بن الخزرج أخوين . والزبير بن العوام ، وسلامة بن سلامة بن وقش أخو بني عبد الأشهل أخوين . ويقال بل الزبير وعبد الله بن مسعود ، حليف بني زهرة ، أخوين وعثمان بن عفان ، وأوس بن ثابت بن المنذر أخو بني النجار ، أخوين . وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك ، أخو بني سلمة ، أخوين . وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبي بن كعب أخو بني النجار : أخوين ومصعب بن عمير بن هاشم ، وأبو أيوب خالد بن زيد ، أخو بني النجار : أخوين وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وعباد بن بشر بن وقش ، أخو بني عبد الأشهل : أخوين . وعمار بن ياسر ، حليف بني مخزوم ، وحذيفة بن اليمان ، أخو بني عبد عبس ، حليف بني عبد الأشهل : أخوين . ويقال ثابت بن قيس بن الشماس ، أخو بلحارث بن الخزرج ، خطيب رسول الله ص وعمار بن ياسر : أخوين . وأبو ذر ، وهو برير بن جنادة الغفاري ، المنذر بن عمرو ، المعنق ليموت أخو بني ساعدة بن كعب بن الخزرج : أخوين . قال ابن هشام : وسمعت غير واحد من العلماء يقول أبو ذر جندب بن جنادة .

قال ابن إسحاق : وكان حاطب بن أبي بلتعة ، حليف بني أسد بن عبد العزى وعويم بن ساعدة أخو بني عمرو بن عوف ، أخوين وسلمان الفارسي ، وأبو الدرداء ، عويمر بن ثعلبة أخو بلحارث بن الخزرج ، أخوين . قال ابن هشام : عويمر بن عامر ويقال عويمر بن زيد . قال ابن إسحاق : وبلال ، مولى أبي بكر رضي الله عنهما ، مؤذن رسول الله ص وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي ، ثم أحد سمي لنا ، ممن كان رسول الله ص آخى بينهم من أصحابه (250).

وساهم نظام المؤاخاة في ربط الأمة بعضها ببعض، فقد أقام الرسول ق هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم، هذا الإخاء الذي تذوب فيه عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه.

وقد جعل الرسول ق هذه الأخوة عقداً نافذاً لا لفظاً فارغاً، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر. وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال(251).

---

250) سيرة ابن هشام ، 1 /504

251) الغزالي ، فقه السيرة ، ص194،193.

روى البخاري : أنهم لما قدموا المدينة أخي رسول الله ص بين عبد الرحمن وسعد ابن الربيع، فقال لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالًا، فاقسم مالي نصفين ولى امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي، أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال : بارك الله لك في أهلك ومالك، وأين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أَقِطٍ وسَمْنٍ، ثم تابع الغدو(252)، ثم جاء يومًا وبه أثر صُفْرَة، فقال النبي ق : (مَهْيَمْ ؟) (253) قال : تزوجت . قال : (كم سقت إليها ؟) قال : نواة من ذهب . فقال له النبي ص : (أولم لو بشاة) (254) وروى عن أبي هريرة قال : قالت الأنصار لنلبى ق : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : (لا) ، فقالوا : فتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة . قالوا : سمعنا وأطعنا (255).

فهذا الحديث يفيد أن الأنصار عرضوا على النبي ص أن يتولى قسمة أموالهم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، وقد كانت أموالهم هي النخيل، فأبى عليهم النبي ص

---

252) تابع الغدو: أي دوام الذهاب الى السوق للتجارة.
253) مهيم : سؤال بمعنى ما شأنك ؟
254) البخاري، كتاب البيوع رقم 2048.
255) صحيح البخاري، المزارعة رقم 2325.

وأراد أمراً تكون فيه المواساة من غير إجحاف بالأنصار بزوال ملكية أموالهم منهم، فقال الأنصار للمهاجرين: تكفوننا المؤونة -أي العمل في النخيل من سقيها وإصلاحها- ونشرككم في الثمرة، فلما قالوا ذلك رأى رسول الله ص أن هذا الرأي ضمن سد حاجة المهاجرين مع الإرفاق بالأنصار فأقرهم على ذلك فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا.

وقد قام الأنصار بالمؤونة وأشركوا المهاجرين في الثمرة، ولعل المهاجرين كانوا يساعدونهم في العمل ولكن أكثر العمل عند الأنصار، وقد شكر المهاجرون للأنصار فعلهم ومواقفهم الرفيعة في الإيثار والكرم وقالوا يا رسول الله مارأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، ولقد كفونا المؤونة وأشركونا في المَهْنأ(256)، حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: لا، ما آثنيتم عليهم ودعوتم الله عز وجل لهم(257). وهذا يدلنا على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين، ومن التضحية والإيثار والود والصفاء، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حق قدره، فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم .

---

256) يعني كفونا العمل واشركونا في الثمرة.

257) مسند احمد (3/200-201)؛ ابن أبي شيبة (9/68) رقم 6561.

الثناء على المهاجرين والأنصار :

صحابة الحبيب محمد ق هم الحواريون وهم خير القرون ، أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها حالا اختارهم الله لصحبة نبيه ق وإقامة دينه ، فحبهم سنة والدعاء لهم قربة والإقتداء بهم وسيلة والأخذ بآثارهم فضيلة "

وهم صفوة خلق الله تعالى -بعد النبيين -عليهم الصلاة والسلام قال ابن مسعود ت " إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ق خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوبَ أصحابهِ خيرَ قلوبِ العبادِ فجعلهم وزراءَ نبيهِ يُقاتِلون على دينه " (258) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية / "... لهم من السوابق، والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر عنهم إن صدر حتى إنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات مما ليس لمن بعدهم... ثم القَدْر الذي يُنكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم، ومحاسنهم من الإيمان بالله، ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة، والنصرة، والعلم النافع والعمل الصالح،

258) رواه أحمد 379/1 والطيالسي (246) بإسناد حسن.

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما منَّ الله عليهم به من الفضائل علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم، وأكرمها على الله " ا. هـ (259)

وعن ابن عباس ب في قول الله - عز وجل –

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

[سورة النمل: الآية 59]. قال: أصحاب محمد ص (260).

وقال سفيان في قوله - عز وجل –الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [سورة الرعد: الآية 28] قال: هم أصحاب محمد ق (261).

وعن وهب بن منبه /- في قوله تعالى-بِأَيْدِي سَفَرَةٍ [سورة عبس: الآية 16، 15].

قال هم أصحاب محمد ق (262).وقال قتادة في- قوله تعالى- الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ سورة البقرة:الآية 121]

---

259) العقيدة الواسطية / 43.

260) رواه الطبري 2/20 ، والبزار وانظر: تفسير ابن كثير 370/3 ، الاستيعاب 13/1، تفسير القرطبي ، 220/13 وبذلك فسرها سفيان الثوري. كما رواه عنه أبو نعيم في الحلية 77/7 ، وابن عساكر 463/23.

261) رواه سعيد بن منصور ، 5/ 435

262) رواه عبد بن حميد وابن المنذر. تفسير ابن كثير 472/4 ، الدر المنثور 418/8.

هم أصحاب محمد ﷺ آمنوا بكتاب الله وعملوا بما فيه (263).

وقد ورد في فضلهم آيات وأحاديث كثيرة منها: قوله - تعالى - ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة: الآية 100].وقال - تعالى- ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [سورة الفتح: الآية 18]

وقال - تعالى -﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح: الآية 29].

---

263) فتح الباري 508/13.

وفي آيات عديدة ذكرهم الله - تعالى - وترضى عنهم.

وعن أبي هريرة ت قال: قال رسول الله ص (لا تسبوا أصحابي لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه) (264) " وسبب تفضيل نفقتهم أنها كانت في وقت الضرورة وضيق الحال بخلاف غيرهم، ولأن إنفاقهم كان في نصرته ق ، وحمايته، وذلك معدوم بعده، وكذا جهادهم وسائر طاعتهم، وقد قال - تعالى –

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [سورة الحديد: الآية 10] وهذا كله مع ما كان فيهم في أنفسهم من الشفقة، والتودد، والخشوع، والتواضع، والإيثار والجهاد في الله حق جهاده، وفضيلة الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عملولا ينال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بقياس ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"ا. هـ (265).

264) رواه البخاري (3470) ومسلم (2540) واللفظ له.
265) شرح مسلم للنووي 93/16 شرح سنن ابن ماجه 15/1 تحفة الأحوذي 246/10.

وقال البيضاوي /: " معنى الحديث لا ينال أحدكم بإنفاق مثل أحد ذهبا من الفضل والأجر ما ينال أحدهم بإنفاق مد طعام أو نصيفه، وسبب التفاوت ما يقارن الأفضل من مزيد الإخلاص، وصدق النية) ا. هـ (266) " مع ما كانوا من القلة، وكثرة الحاجة والضرورة " (267) وقيل " السبب فيه أن تلك النفقة أثمرت في فتح الإسلام، وإعلاء كلمة الله ما لا يثمر غيرها، وكذلك الجهاد بالنفوس لا يصل المتأخرون فيه إلى فضل المتقدمين لقلة عدد المتقدمين، وقلة أنصارهم فكان جهادهم أفضل، ولأن بذل النفس مع النصرة، ورجاء الحياة ليس كبذلها مع عدمها " ا. هـ (268).

ومما جاء في فضلهم ي حديث ابن مسعود تعن النبي ص قال: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) (269) " وإنما صار أول هذه الأمة خير القرون؛ لأنهم آمنوا به حين كفر الناس، وصدقوه حين كذبه الناس وعزروه، ونصروه، وآووه، وواسوه بأموالهم وأنفسهم، وقاتلوا غيرهم على كفرهم حتى أدخلوهم في الإسلام " ا. هـ (270).

---

266) فتح الباري 34/7.
267) عون المعبود 269/12.
268) تحفة الأحوذي 338/8.
269) رواه البخاري (2509) ومسلم (2533).
270) التمهيد 251/20 فيض القدير 3/ 478.

ومما جاء في فضلهم ما رواه أبو بردة ت قال: قال رسول الله ص (النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون) (271) " وهو إشارة إلى الفتن الحادثة بعد انقراض عصر الصحابة من طمس السنن وظهور البدع وفشو الفجور في أقطار الأرض " (272).

وها هو أمير المؤمنين علي ت يصف حال الصحابة فعن أبي راكة قال: صليت خلف علي صلاة الفجر فلما سلم انفلت عن يمينه ثم مكث كأن عليه الكآبة حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح قال: لقد رأيت أصحاب محمد ق فما أرى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون ضمرا شعثا غبرا بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله ويراوحون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجر في يوم الريح فهملت أعينهم حتى تبتل ثيابهم. (273)

---

271) رواه مسلم (2531).

272) تحفة الأحوذي 156/10 فيض القدير 296/6.

273) رواه أبو نعيم في الحلية 76/1 وابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل /272والخطيب في الموضح 330/2 وابن عساكر 492/42.

الثناء علي المهاجرين :

ولقد ورد في فضلهم آيات كثيرة منها:

قوله تعالى:

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [سورة الحشر: الآية 8]

. فقوله تعالى:

يدل على أنهم لم يخرجوا من ديارهم وأموالهم إلا أن يكونوا مخلصين لله، مبتغين مرضاته ورضوانه.

قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشائر وخرجوا حباً لله ولرسوله واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة، حتى ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحضيرة في الشتاء ماله من دثار(274) غيرها.

وامتدح الله في هذه الآية الكريمة المهاجرين بأنهم ينصرون الله ورسوله، ذلك لأنهم ما خرجوا من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين إلى المدينة إلا لنصرة الله تعالى ورسوله.ونصر الله شرط لتحقيق النصر والتثبت، قال تعالى:

---

274) تفسير البغوي (318/4).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [سورة محمد: الآية 7]
يقول سيد قطب : وكيف ينصر المؤمنون الله، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت؟إن لله في نفوسهم أن تتجرد له، وألا تشرك به شيئاً، شركاً ظاهراً أو خفياً، وألا تستبقي فيها معه أحداً ولا شيئاً وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها، وسرها وعلانيتها، ونشاطها كله وخلجاتها، فهذا نصر الله في ذوات النفوس.

وإن لله شريعة ومنهاجاً للحياة، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة، ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء، فهنا نصر الله في واقع الحياة(275).

وقال تعالى:وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) [سورة النحل: الآية41 ، 42] يمتدح الله ـ المهاجرين بأنهم يتوكلون على الله لا غيره، والتوكل على الله خاصية الإيمان وعلامته، وأنه منطق الإيمان ومقتضاه.

275) في ظلال القرآن (3288/6).

وقد ضرب رسول الله ص وصحابته الكرام مثالاً يقتدي به على مر الدهور في ترجمة التوكل في واقع الحياة في حادثة الهجرة ولحسن توكلهم علي الله أثنى عليهم وجزآهم أحسن الجزاء(276).

وقال عزو جل:

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ [سورة النحل: الآية 110]

وقال تعالى:

الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ [سورة التوبة: الآية 20]

فقد تركزت دعوة الرسل على التضحية والفداء إذ أنها تواجه عناداً وتكذيباً وعداء مستحكماً، وهذا لابد من مواجهته بصلابة عود وقوة إيمان ورسوخ عقيدة وعظيم بدل، والحياة في ظل العقيدة حياة جهاد وكفاح ومنذ مطلع الدعوة كان نزول جبريل بالوحي إيذاناً لرسول الله ص بإيذاء قومه حيث قال له ورقة بن نوفل:(هذا الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتني فيها جذعاً(277) ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك،

276) الهجرة في القرآن الكريم، ص114 - 117.
277) جذعاً: شاباً قوياً.

فقال رسول الله ص (أو مخرجي هم؟) فقال ورقة: (نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً) (278).

قال أبو السعود في تفسيره: قوله تعالى: ﴿ ک ک ﴾أي المختصون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق، كأن فوز من عداهم ليس بفوز بالنسبة إلى فوزهم(279).

فهذا ثناء من الله العلي العظيم على المهاجرين بأنهم يستحقون الفوز العظيم، والفوز يكون عظيماً لأنه يأتي من مصدر العظمة وأي فوز أعظم من هذا الفوز، يخبرهم ربهم بأنهم من الفائزين في الآخرة، وذلك بدخولهم الجنة وبعدهمعن النار قال تعالى كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ [سورة آل عمران: الآية 185]

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [سورة البقرة: الآية 218]

---

278) مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي حديث رقم 252 (142/1).
279) تفسير ابي السعود (53/4)

وإنما قال: { ﯙ } وقد مدحهم، لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ لأمرين أحدهما: لا يدري بما يختم له والثاني: لئلا يتكل على عمله، فهؤلاء قد غفر الله لهم ومع ذلك يرجون رحمة الله وذلك زيادة إيمان منهم(280).

قال تعالى: لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ

[سورة التوبة: الآية 117]

فالمهاجرون والأنصار هم الذين يتبعون الرسول ق في أقواله وأعماله بل في ساعة العسرة مما يدل على أنهم يستحقون بذلك الدرجة العظمى، والتوبة من الله عز وجل. وقد نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة، وحر شديد وعسر في الزاد والماء.

---

280) الجامع لأحكام القرآن (50/3)

قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليهاثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم(281) من غزوتهم(282).

قال تعالى:

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

[سورة التوبة: الآية 100]قال الرازي: والسبق موجب للفضيلة، فإقدامهم على هذه الأفعال يوجب اقتداء غيرهم بهم قال ق:(من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بهاإلى يوم القيامة) (283). فدواعي الناس تقوى بما يرون من أمثالهم في أحوال الدين والدنيا. وثبت بهذا أن المهاجرين هم رؤساء المسلمين وسادتهم(284).

---

281) أقفلهم: بمعنى أرجعهم سالمين.

282) تفسير ابن كثير (397/2).

283) مسلم، كتاب العلم، باب من سنة سنّة حسنة أو سيئة، رقم 15.

284) تفسير الرازي (208/15).

وهكذا اختار الله ـ السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة التي تحتمل الضغوط والفتنة والأذى والجوع والغربة والعذاب والموت في أبشع الصور في بعض الأحيان، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة، ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة، مع السابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوها في أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون، إلا أن بيعتهم لرسول الله ص (بيعة العقبة) قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين (285).

قال تعالى:

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [سورة الأنفال: الآية 74]

فهذه شهادة من الله العليم الخبير للمهاجرين بأنهم المؤمنون حقاً، فالمهاجرون - رضوان الله عليهم- هم النموذج الحقيقي الذي يتمثل فيه الإيمان - بعد رسول الله ص كما أنهم قدوة حسنة لمن جاء بعدهم، وصورة حقيقية في ترجمة الصفات الحميدة في واقع الحياة، فلذلك استحقوا هذا الثناء الرباني بأنهم المؤمنون حقاً،

---

285) أحزمي سامعون جزولي ، الهجرة في القرآن الكريم، مكتبة الرشد ، الرياض، الطبعة الأولى، 1417هـ 1996م، ص85-114 بتصرف ، الصلابي ، السيرة النبوية ، 355/1-360

قال تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (1) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) [سورة الأنفال: الآية :4،2]. وهذه الصفات الحميدة تتمثل في حياة المهاجرين - كما أن المتصفين بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان. قال تعالى: فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ [سورة آل عمران: الآية 195].

الثناء علي الأنصار :

أثنى الله سبحانه وتعالى على الأنصار في القرآن الكريم، وورد في فضلهم أحاديث كثيرة منها:لقد سماهم الله ورسوله بهذا الأنصار حين بايعوا على الإسلام، وقاموا بإيواء المؤمنين ونصرة دين الله ورسوله ق ولم يكونوا معروفين بذلك من قبل فعن غيلان بن جرير / قال: قلت لأنس: أرأيت اسم (الأنصار) كنتم تسمون به، أم سماكم الله؟ قال: سمانا الله عز وجل(286).

286) عبد الرحمن البر، الهجرة النبوية المباركة، ص131: 135.

أما مناقبهم وفضائلهم فكثيرة لا تحصى، منها مناقب عامة لجميع الأنصار ومناقب خاصة بأفراد من الأنصار، أما المناقب العامة الواردة في القرآن الكريم ما يلي:

قال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [سورة الأنفال: الآية 74].

وقال تعالى: وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [سورة التوبة: الآية 100].وقال تعالى: وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [سورة الحشر: الآية 9].وعن أنس ت قال: رأى النبي ص النساء والصبيان مقبلين قال: حسبت أنه قال: من عرس فقام النبي ص مُمْثِلاً(287) فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إلي» قالها ثلاث مرار(288).

287) مُمْثِلاً: يعني انتصب قائمًا.

288) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، رقم 3785.

وعن البراء بن عازب بقال: سمعت رسول الله ص يقول: «الأنصارلا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»(289).

وعن عائشة ل قالت: قال رسول الله ق: «ما يضر امرأة نزلت بين بيتين من الأنصار أو نزلت بين أبويها»(290). وهذه شهادة من الحبيب محمد ق للأنصار بالعفة والشهامة وأصالة المعدن ، وما أعظمها شهادة وما أعظمه من شاهد.

وعن أبي هريرة ت عن النبي ص قال: «لو أن الأنصار سلكوا واديًا أو شِعْباً لسلكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار»(291).

وعن زيد بن أرقم تأن النبي ص قال: «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار، ولنساء الأنصار»(292).

---

289) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، رقم 3783.

290) رواه أحمد (257/6) مجمع الزوائد (40/10) الحاكم (83/4).

291) البخاري، مناقب الأنصار (112/6) رقم 3779.

292) البخاري، كتاب التفسير، سورة المنافقين، رقم 4906.

وعن أنس ت أن رسول الله ص قال: «إن الأنصار كرشي(293) وعيبتي(294) وإن الناس سيكثرون ويقلون(295) ، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزا عن مسيئهم»(296).

وعنه أيضاً قال: خرج نبي الله ق فتلقته الأنصار بينهم، فقال: «والذي نفس محمد بيده إني لأحبكم، وإن الأنصار قد قضوا ما عليهم، وبقي الذي عليكم(297) فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزا عن مسيئهم» (298) .

فهذه وصية الحبيب محمد ق بالأنصار والإحسان إلى محسنهم، والتجاوز عن مسيئهم(299).

---

293) كرشي: بكسر الكاف أي جماعتي وموضع ثقتي وفي الكلام تشبيه لهم بالكرش.
294) عيبتي: موضع سري وأمانتي أي إنهم بطانتي وخاصتي.
295) ويقلون: أي ويقل الأنصار.
296) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، رقم 3801.
297) قضوا الذي عليهم، يشير إلى ما وقع لهم ليلة العقبة من المبايعة فإنهم بايعوا على أن يؤوا النبي ﷺ وينصروه على ان لهم الجنة، فوفوا بذلك (فتح الباري 122/7).
298) مسند الإمام أحمد (187/3)..
299) الهجرة النبوية المباركة، ص150.

الوعيد الشديد فيمن آذى أصحاب الحبيب محمد ص

عن عبد الله بن مغفل المزني تقال: قال رسول الله ص (الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله- تبارك وتعالى - ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه) (300)

قال المناوي / " (الله الله في حق أصحابي) أي اتقوا الله فيهمولا تلمزوهم بسوء، أو اذكروا الله فيهم وفي تعظيمهم وتوقيرهم، وكرره إيذانا بمزيد الحث على الكف عن التعرض لهم بمنقص (لا تتخذوهم غرضا) هدفا ترموهم بقبيح الكلام كما يرمى الهدف بالسهام هو تشبيه بليغ (بعدي) أي بعد وفاتي " ا. هـ (301).

وعن ابن عباس ب قال: قال رسول الله ص (مَن سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) (302).

---

300) رواه أحمد 54/5 والترمذي (3862) والبيهقي في الشعب 191/2 وقال الترمذي: (هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه) ا. هـ.

301) فيض القدير 98/2.

302) رواه الطبراني في الكبير 142/12 وفي الدعاء (2108) والخلال في السنة (833) والقطيعي في زوائد الفضائل (8) والخطيب في التاريخ 241/14 من حديث أنس - رضي الله عنه - كما رواه الطبراني في الكبير 434/12 والأوسط (7515) وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - والحديث حسنة الألباني - رحمه الله - في الصحيحة (2340).

قال ابن عمر ب " لا تسبوا أصحاب محمد ق فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عُمره " (303).

وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك وسأله أمعاوية أفضل أو عمر بن عبد العزيز فقال " لتراب في منخري معاوية مع رسول الله ص خير وأفضل من عمر بن عبد العزيز " (304).

وجاء رجل إلى الإمام أبي زرعة الرازي/ فقال: يا أبا زرعة أنا أبغض معاوية. قال: لِمَ؟ قال: لأنه قاتَل عليا. فقال أبو زرعة: إن ربّ معاوية ربّ رحيم وخصمَ معاوية خصمٌ كريم فما دخولك أنت بينهما رضي الله عنهم أجمعين (305).

وقال الإمام أحمد /" إذا رأيت رجلا يذكر أصحاب رسول الله ص بسوء فاتهمه على الإسلام " (306) وقال/ " لا يجوز لأحد أن يذكر شيئا من مساويهم ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا نقص فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته ليس له أن يعفو عنه بل يعاقبه ويستتيبه فان تاب قبل منه وإن ثبت أعاد عليه العقوبة وخلده الحبس حتى يموت أو يراجع " (307)

303) رواه أحمد في الفضائل 57/1 وابن أبي شيبة 405/6 وابن ماجه (162) وابن أبي عاصم في السنة 484/2 قال البوصيري في زوائد ابن ماجه 24/1" هذا إسناد صحيح ".

304) رواه ابن عساكر 208/59 وانظر: منهاج السنة 227/6.

305) رواه ابن عساكر 141/59وانظر فتح الباري 86/13 عمدة القاري 215/24.

306) شرح أصول الاعتقاد للالكائي 1252/7 الصارم المسلول 3/ 1058

307) الصارم المسلول 1057/3 العقيدة 81/1

وقال بشر بن الحارث / " مَن شتم أصحاب رسول الله ص فهو كافر وإن صام وصلى وزعم أنه من المسلمين " (308).

و قال أبو زرعة / " إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله ص فاعلم أنه زنديق وذلك أن الرسول حق والقرآن حق وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنة أصحابُ رسول الله ص وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليَبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة " ا. هـ(309).وقال السرخسي / " فمن طعن فيهم فهو ملحد منابذ للإسلام دواؤه السيف إن لم يتب " ا. هـ(310).وقال الإمام محمد بن صُبيح بن السماك/ لمن انتقص الصحابة " علمتَ أن اليهود لا يسبون أصحاب موسى؛ وأن النصارى لا يسبون أصحاب عيسى ؛فما بالك يا جاهل سببت أصحاب محمد ق؟ وقد علمتُ من أين أوتيتَ لم يشغلك ذنبك أما لو شغلك ذنبك لخفت ربك، ولقد كان في ذنبك شغل عن المسيئين فكيف لم يشغلك عن المحسنين؟ أما لو كنت من المحسنين لما تناولت المسيئين، ولرجوت لهم أرحم الراحمين، ولكنك من المسيئين فمن ثَمَّ عبت الشهداء والصالحين، أيها العائب لأصحاب محمد ص لو نمتَ ليلك، وأفطرت نهارك لكان خيرا لك من قيام ليلك، وصوم نهارك مع سوء قولك في أصحاب رسول الله ص

308) رواه ابن بطة في الإبانة /162.

309) تاريخ بغداد 132/38 والكفاية /97.

310) أصول السرخسي 134/2.

فويحك لا قيام ليل، ولا صوم نهار، وأنت تتناول الأخيار فأبشر بما ليس فيه البشر ى إن لم تتب مما تسمع وترى..وبم تحتج يا جاهل إلا بالجاهلين، وشر الخلف خلف شتم السلف لواحد من السلف خير من ألف من الخلف " ا.هـ (311).

وقال الطحاوي/ " ونحب أصحاب رسول الله ص و لا نُفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم ونبغض من يبغضهم، وبغير الحق يذكرهمولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان " ا. هـ(312).

قال الذهبي : محبة الصحابة لكونهم صحبوا رسول الله ص نصروه و آمنوا به و عزروه و واسوه بالأنفس و الأموال فمن أحبهم فإنما أحب النبي صلى الله عليه و سلم فحب أصحاب النبي ص عنوان محبته و بغضهم عنوان بغضه ....و ما ذاك إلا لسابقتهم و مجاهدتهم أعداء الله بين يدي رسول الله ص.... و إنما يعرف فضائل الصحابة ي من تدبر أحوالهم و سيرهم و آثارهم في حياة رسول اللهق و بعد موته من المسابقة إلى الإيمان و المجاهدة للكفار و نشر الدين وإظهار شعائر الإسلام و إعلاء كلمة الله و رسوله و تعليم فرائضه و سننه و لولاهم ما وصل إلينا من الدين أصل و لا فرع و لا علمنا من الفرائض و السنن سنة و لا فرضاو لا علمنا من الأحاديث و الأخبار شيئا ،

---

311) المعافي زكريا ، الجليس الصالح، 392/2.

312) عقيدة الطحاوي مع شرحها 689/2.

فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خرجمن الدين و مرق من ملة المسلمين لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم وإضمار الحقد فيهم و إنكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من ثنائه عليهم و ما لرسول الله ص من ثنائه عليهم و فضائله و مناقبهم و حبهم و لأنهم أرضى الوسائل من المأثور و الوسائط من المنقول و الطعن في الوسائط طعن في الأصل والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول هذا ظاهر لمن تدبره و سلم من النفاق و من الزندقة و الإلحاد في عقيدته...... (313)

ونحن لا نقول إلا كما قال الله - تعالى –

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ [سورة الحشر: الآية 10].

اللهم ارض عن أصحاب نبيك أجمعين واحشرنا وإياهم في زمرة سيد المرسلين الحبيب محمد ص .

313) محمد بن عثمان الذهبي ، الكبائر، دار الندوة الجديدة – بيروت ، ص236

الوثيقة أو الصحيفة :

وكما قام الحبيب محمد ق بعقد هذه المؤاخاة بين المؤمنين، أزاح بها ما كان بينهم من حزازات في الجاهلية، وما كانوا عليه من نزعات قبلية جائرة واستطاع بفضلها إيجاد وحدة إسلامية شاملة ،قام بعقد معاهدة (وثيقة) وأسس المواطنة والحقوق والواجبات بين سكان المدينة (المجتمع الجديد) توضح مبادئ وتضمنت هذه الصحيفة مبادئ عامة ، درجت دساتير الدول الحديثة على وضعها فيها ، وأهم بنودها ما يأتي :

" بسم الله الرحمن الرحيم "

هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

أنهم أمة واحدة من دون الناس (314).

المهاجرون من قريش على ربعتهم (315) يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم(316) بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

314) أي متميزين عن الناس، ويمكن أن يعني ذلك اليهود، ولكن هذا بعيد.

315) على ربعتهم " تعني وضـعهم الاول ، وينص البند على وجوب اتباع تقسـيم عادل بين مختلف الجماعات داخل القبائل.

316) العاني: الاسير.

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين (317).

ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار:

وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

317) على معاقلهم الاولى: أي دفع الديات يجري حسب القوانين السائدة سابقا، " وبين المؤمنين " يمكن أن تعني استبعاد غير المؤمنين المنتمين لبني عوف.

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

إلى أن قال:

وان المؤمنين لا يتركون مفرحا (318) بينهم وان يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى، دسيسة ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم.

ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن.

وإن ذمة الله واحدة: يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا تناصر عليهم.

وإن سلم المؤمنين واحدة: لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل اللهإلا على سواء وعدل بينهم.

وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا (319).

---

318) مفرحا: قال ابن هشام: المفرح المثقل بالدين، والكثير العيال.

319) يمكن أن تطبق هذه الجملة على ركوب البعير ، أو على أي واجب عسكري

وإن المؤمنين يبئ (320) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

وانه لا يجبر مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن.

وانه من اعتبط (321) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي القتول، وان المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

وانه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا (322) ولا يأويه وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده إلى الله عز وجلوإلى محمد ص.

وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (323) إلا نفسه وأهل بيته.

وان ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

وان ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

---

320) يبئ: من البواء أي المساواة.
321) اعتبطه: قتله بلا جناية أو ذنب يوجب قتله.
322) محدثا: المحدث الشخص الذي يحدث اضطرابا في الوضع القائم.
323) يوتغ: يهلك.

وان ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

وان ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

وان ليهود بني الاوس مثل ما ليهود بني عوف.

وان ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وإثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف وان البر دون الاثم .

وان موالي ثعلبة كأنفسهم.

وان بطانة يهود كأنفسهم (324).

وانه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد وانه لا ينحجر (325) على ثأر جرح وانه من فتك نفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وان الله على ابر من هذا.

وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم، وانه لم يأثم امرؤ بحليفه وان النصر للمظلوم.

وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

---

324) بطانة الرجل خاصته وأهل سره

325) اتحجر جرحه للبرء انفجر، يعني التأم بعد اجتماعه.

وان يثرب حرام جرفها (326) لأهل هذه الصحيفة.

وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

وانه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله وان الله على اتقى ما في هذه الصحيفة وابره.

وانه لا تجار قريش ولا من نصرها.

وان بينهم النصر على من دهم يثرب.

وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعواإلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين (327) إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

وان يهود الاوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة، وان البر دون الإثم.

لا يكسب كاسب إلا على نفسه (328)، وان الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وابره وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وانه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وإثم وان الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ص (329).

---

326) جرفها، والجرف: موضع قريب من المدينة.

327) ربما يعني ذلك: أن هذا دين على المؤمنين

328) أو يعني: عليهم أن يحكموا دون الاهتمام بالمؤمنين.

329)ابن كثير ، البداية والنهاية ، 3 /273 -276

إن بنود هذه الصحيفة تدل بوضوح وجلاء على عبقرية الحبيب محمد ق في صياغة موادها وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعض فقد كانت موادها مترابطة وشاملة وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة آنذاك وفيها من القواعد والمبادئ ما يحقق العدالة المطلقة والمساواة التامة بين البشر، وأن يتمتع بنو الإنسانعلى اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأديانهم بالحقوق والحريات بأنواعها ، ولا تزال المبادئ التي تضمنها الدستور- في جملتها معمولاً بها- والأغلب أنها ستظل كذلك في مختلف نظم الحكم المعروفة إلى اليوم ... وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها في أول وثيقة سياسية دَوّنها الرسول ق) (330).

لقد تضمنت الصحيفة مبادئ عامة ، درجت دساتير الدول الحديثةعلى وضعها فيها .

وفي طليعة هذه المبادئ تحديد مفهوم الأمة ، فالأمة في الصحيفة تضم المسلمين جميعهاً مهاجريهم وأنصارهم ومن تبعهم ممن لحق بهم وجاهد معهم أمّة واحدة من دون الناس(331) .

330) النظام السياسي للدولة الاسلامية ، ص65.

331) د. علي معطي، التاريخ السياسي والعسكري، ص169.

فلقد قالت الصحيفة عنهم إنهم "أمة واحدة" ، وقد جاء به القرآن الكريم ، قال تعال إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ [سورة الأنبياء: الآية 92].

بين ـ وسطية هذه الأمة في قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ [سورة البقرة: الآية 143].

، ووضح ـ بكونها أمة إيجابية فهي لا تقف موقف المتفرج من قضايا عصرها ، بل تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتدعوا إلى الفضائل وتحذر من الرذائل(332)

واعتبرت الصحيفة اليهود جزءاً من مواطني الدولة الإسلامية وعنصرمن عناصرها ولذلك قيل في الصحيفة:(وأن من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم) ، ثم زاد هذا الحكم إيضاحاً حيث نصّت صراحة بالنص الذي يقول :(وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين..).

332) د. عبدالناصر العطار، دستور للأمة، ص9.

وبهذا ترى أن الإسلام قد اعتبر أهل الكتاب الذين يعيشون في أرجائه مواطنين، وأنهم أمة مع المؤمنين، ماداموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم، فاختلاف الدين ليس بمقتضى أحكام الصحيفة سبباً للحرمانمن مبدأ المواطنة (333).

كما جعلت الصحيفة الفصل في كل الأمور بالمدينة، يعود إلى الله ورسوله ق ، فقد نصت على مرجع فض الخلاف في الفقرة التي جاء فيها:(وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مردّه إلى الله وإلى محمدق).

وقد اعترف اليهود في هذه الصحيفة بوجود سلطة قضائية عليا يرجع إليها سكان المدينة بما فيهم اليهود بموجب البند الذي يقول : (وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله وان الله على اتقى ما في هذه الصحيفة وابره) لكن اليهودلم يُلزموا بالرجوع إلى القضاء الإسلامي دائماً بل فقط عندما يكون الحدث أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين، أما في قضاياهم الخاصة وأحوالهم الشخصية فهم يحتكمون إلى التوراة ويقضي بينهم أحبارها، ولكن إذا شاءوا فبوسعهم الاحتكام إلى النبي ص وقد خيّر القرآن الكريم النبي ص بين قبول الحكم فيهم أو ردهم إلى أحبارهم قال تعالى:

333) ظافر القاسمي ، نظام الحكم، 37/1.

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [سورة المائدة: الآية 42]

وجاء في الصحيفة : (أن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة) وأصل التحريم أن لا يقطع شجرها، ولا يقتل طيرها، فإذا كان هذا هو الحكم في الشجر والطير فما بالك في الأموال والأنفس؟ ، فهذه الصحيفة حددت معالم الدولة: أمة واحدة، وإقليم هو المدينة، وسلطة حاكمة يرجع إليها وتحكم بما أنزل الله(334).

وقد أعلنت الصحيفة أن الحريات مصونة، كحرية العقيدة والعبادة وحق الأمن...الخ، فحرية الدين مكفولة:للمسلمين دينهم ولليهود دينهم

334) ظافر القاسمي ، نظام الحكم، 37/1.

قال تعالى:لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [سورة البقرة: الآية 256]

وقد أنذرت الصحيفة بإنزال الوعيد، وإهلاك من يخالف هذا المبدأ، أو يكسر هذه القاعدة، وقد نصت الوثيقة على تحقيق العدالة بين الناس، وعلى تحقيق مبدأ المساواة. كانت هذه الوثيقة فيها من المعاني الحضارية الشيء الكثير، وما توافق الناس على تسميته اليوم بحقوق الإنسان، وهذه الوثيقة أقرت الكثير من الحقوق والواجبات التي عليها نبني المجتمع الإسلامي .